

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالمراسات الإسلامية وبشؤون الشفاعة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



المغرب والبعء الإفريقي



السنة التاسعة والخمسون - العدد 421 رمضان 1438 هـ / يونيو 2017 م

421

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة التاسعة والخمسون - العدد 421 رمضان 1438هـ / يونيو 2017م



أسسها
جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م



”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعاج
مقتلَب الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا دُعالة العكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تملك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الإسلامية
الملك محمد السادس في 1376هـ / 1957م

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمنية - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

فبست زيارة أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس لدول إفريقيا آفانا
جديلة... وحركت عجلة تاريخ الأواصر المغربية الإفريقية نحو مستقبل أوسع من التنمية
الاقتصادية والثقافية والروحية....

لحظات أعادت لناكرة الفارة السمراء صورا ناصعة لأجاء عريفة، وركزت أنظار
المتتبعين من الفارات الخمس على الأمور الصوري الكما ما فتى المغرب يخلص به في توحيد
جهود دول الفارة لتحقيق النهضة الشاملة المنشودة والمبتغاة.

...ولضل البيان المرحوس ينتظر اللبنة المفقودة إلى أن توجت الزيارة بل الزيارات
الملكية بانضمام المغرب للاتحاد الإفريقي بعد غيبة أثرت سلبا على المردودية الإفريقية
وعثرت خصواتها التنموية لعشرات السنين...

...وانصلفت الفافلة ثانية لتحقيق الفعرة النوعية بمجموعة من الاتعافيات الشائبة في
مختلف الميادين والفصاعات بحضور جم غفير من الععاليات من مختلف الاختصاصات
ئات الصلة.

ومواكبة لهذا المسار التنموي القائل، وشعورا منها بضرورة تسجيل هذا اللحظة
الحاسمة في تاريخ إفريقيا المعاصرة، خصت العجلة هذا العدم للإسهامات الرصينة
لمجموعة من الأفلام المختصة في العلاقات المغربية الإفريقية علها تعي بتجربة بعض
الجوانب منها، وتلملم ما انثر من خباياها وخباياها العلمية والروحية...

وبالله التوفيق

رئيس التحرير

نصر الخطاب السامي الذي ألقاه جلالة الملك بأديس أبابا أمام المشاركين في القمة 28 للاتحاد الإفريقي

ألقى صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، يوم الثلاثاء 31 يناير 2017، خطابا ساميا أمام المشاركين في أشغال القمة الثامنة والعشرين لغالطة دول ورؤساء حكومات بلدان الاتحاد الإفريقي التي تحتضنها العاصمة الإثيوبية أديس أبابا.

وفي ما يلي نص الخطاب الملكي السامي:

”الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

عظامه الرئيس ألبا كوندي، رئيس القمة الثامنة والعشرين للاتحاد الإفريقي،

السيدات والسادة رؤساء الدول والحكومات،

السيدة رئيسة معوضية الاتحاد الإفريقي،

أصحاب المعالي والسعادات، حضرات السيدات والسادة،

كم هو جميل هذا اليوم، الذي أعود فيه إلى البيت، بعد حصول غياب! كم هو

جميل هذا اليوم، الذي أحمل فيه فليح ومشاعري إلى المكان الذي أحبه! بإفريقيا فارت، وهي أيضا بيتي.

لقد عدت أخيرا إلى بيتي. وكم أنا سعيد بلقاءكم من جديد. لقد اشتقت إليكم

جميعا.

من أجل ذلك، فررت، أخواتي وإخواني الأعضاء فائمة الدول، أن أفوم بهذا الزيارة، وأن أتوجه إليكم بهذا الخطاب، دون انتظار استكمال الإجراءات القانونية والمسهرية، التي ستعطي لاستعامة المملكة مكانها داخل الاتحاد.

وإن الدعم الصريح والغوي، الذي حظي به المغرب، لغير دليل على متانة الروابط التي تجمعنا.

لقد كان الانسحاب من منظمة الوحدة الإفريقية ضروريا: فقد أتاح الفرصة للمغرب لإعامة تركيز عمله داخل الفارة، ولإبراز مدى حاجة المغرب لإفريقيا، ومدى حاجة إفريقيا للمغرب.

لقد جاء فرار العوامة إلى المؤسسة الإفريقية ثمرة تعبير عميق. وهو اليوم أمر بديهي.

لقد حان موعد العوامة إلى البيت: فبقي الوقت الذي تعتبر فيه المملكة المغربية من بين البلدان الإفريقية الأكثر تفهما، وتتطلع فيه معظم الدول الأعضاء، إلى رجوعنا، اخترنا العوامة للقاء أسرنا. وفي واقع الأمر، فإننا لم نغادر أبدا هذه الأسرة.

ورغم السنوات التي غبنا فيها عن مؤسسات الاتحاد الإفريقي، فإن الروابط لم تنفصع فها؛ بل إنها ظلت قوية. كما أن الدول الإفريقية وجدتنا دائما بجانبها:

* لقد استلصعنا تصوير علاقات ثنائية قوية وملموسة: فمنا سنة 2000، أبرم المغرب مع البلدان الإفريقية، حوالي ألب اتعافية همت مختلف مجالات التعاون.

وعلى سبيل المفارنة، هل تعلمون أنه بين سنتي 1956 و1999، تم التوقيع على 515 اتعافية، في حين أنه منذ سنة 2000 إلى اليوم، وحل العداء إلى 949 اتعافية، أي حوالي الضعف؟

وخلال هذه السنوات، ارتأيت شخصيا أن أعطي لموسسة لهذا التوجه، وذلك من خلال تكثيف الزيارات إلى مختلف جهات ومناقص الفارة.

كما تم التوقيع أيضا، خلال كل واحدة من الزيارات الستة والأربعين، التي فمت بها إلى 25 بلدا إفريقيا، على العديد من الاتفاقيات في الفصاع الخاص.

وفد أولنا عناية خاصة لمجال التكوين، الذي يوجد في حلب علاقات التعاون مع البلدان الإفريقية الشقيقة. وهكذا، تمكن العديد من المواهب المنحدرين من البلدان الإفريقية، من متابعة تكوينهم العالي في المغرب، وذلك بفضل الآف المنع التي تقدم لهم.

* كما تميزت زيارتي لهذه البلدان، بإطلاق مشاريع استراتيجية مهمة:

- بعبي المقام الأول: سعدت ببلورة مشروع أنبوب الغاز إفريقيا-الأطلسي، مع أخي فخامة السيد محمد بهاري، رئيس جمهورية نيجيريا الفدرالية.

وسيمكن هذا المشروع بصيغة الحال، من نفل الغاز من البلدان المنتجة نحو أوروبا. بل أكثر من ذلك، ستستفيد منه كافة دول إفريقيا الغربية.

ذلك أنه سيساهم في هيكلة سوق كهربائية إفريقية، وسيشكل مصدرا أساسيا للطاقة، وجعله في خدمة التطور الصناعي، فضلا عن كونه سيعزز من التنافسية الاقتصادية، وسيرفع من وتيرة التقدم الاجتماعي.

وسيتبع هذا المشروع إنتاج الثروات بالبلدان والشعوب المجاورة المعنية، حيث سيخلق حركية قوية، تضعي دينامية تساهم في تحقيق التقدم، وتصور مشاريع موازية.

وبالإضافة إلى ذلك، سيسمح بإقامة علاقات أكثر استغراقا وهكودا، سواء على المستوى الثاني أو متعدد الأطراف، وسيعزز مناخا محفزا لتحقيق التقدم والنمو.

- أما في المقام الثاني، وفي إطار المشاريع التي تهدف إلى الرفع من المردودية الزراعية، وضمان الأمن الغذائي والتنمية الريفية، فقد تمت إقامة وحدات لإنتاج الأسمدة بالشراكة مع كل من إثيوبيا ونيجيريا. وستعود هذه المشاريع بالنفع على الفارة بأكملها.

وكما نعلم جميعاً، فلا الغاز ولا البترول بإمكانه تلبية الحاجيات الغذائية الأساسية. ليس الأمن الغذائي أكبر تحدٍ تواجهه الفارة الإفريقية؟

وهذا هو جوهر المبادرة من أجل تكييف الزراعة الإفريقية مع التغيرات المناخية، التي تعرف بمبادرة "Triple A"، التي أطلقناها بمناسبة قمة المناخ "كوب 22". إنها مبادرة تمثل جواباً جيداً ملموس وغير مسبوق، لمواجهة التحديات المشتركة المترتبة عن التغيرات المناخية.

بمباشرة بعد إطلاقها، حظيت هذه المبادرة، بدعم فريدة ثلاثين بلداً. وتهدف مبادرة "Triple A" إلى توفير موارد مالية أكبر لتحقيق "ملازمة الزراعة الإفريقية الصغرى"، وستواكب أيضاً هيكلة وتسريع المشاريع الزراعية بالاعتماد على أربعة برامج، وهي:

- التدبير العقلاني للتربة،

- والتحكم المستدام في المياه المستعملة لأغراض زراعية،

- وإدارة المخاطر البيئية،

- والتمويل التضامني لحاملي المشاريع الصغرى.

وقد شكلت هذه المبادرة أحد المحاور الرئيسية في قمة العمل الإفريقي، التي كان لي شرف رئاستها في مدينة مراكش، في شهر نونبر الماضي.

- وأخيرا، لقد حافظنا على متانة علاقاتنا في مجال الأمن والسلام:
هل من حاجة للتذكير بأننا كنا دائما من السباقيين للدفاع عن استقرار الغارة
الإفريقية؟

لقد شارك المغرب، منذ استقلاله، في ست عمليات أممية لاستتباب الأمن في
إفريقيا، وذلك بنشر آلاف الجنود في عدة جبهات.
ولا تزال القوات المغربية، إلى اليوم، منتشرة في أراضي جمهورية إفريقيا الوسطى
وجمهورية الكونغو الديمقراطية.

وفي نفس السياق، فام المغرب بمبادرات في مجال الوساطة، ساهمت بشكل فعال،
في دعم وإفراز السلم، خاصة في ليبيا ومنطقة نهر مانو.

أصحاب النخامة والمعالي،

حضرات السيدات والسادة،

إن منضورنا للتعاون جنوب-جنوب واضح وثابت: فبلادي يتفاسم ما لديه، دون مباهاة
أو تفاخر.

وهكذا وباعتمادنا على التعاون البناء، سيصبح المغرب، وهو فاعل اقتصادي
رائد في إفريقيا، فاهصة للتنمية المشتركة.

أما على الصعيد الداخلي، فإنه يتم استغلال الألفة من دول جنوب الصحراء، في
إظهار الالتزام بالمبادئ التي فمنا بالإعلان عنها سابقا. وقد تم إصلاق العديد من
عمليات تسوية الوضعية، حيث استعلاء منها، في المرحلة الأولى، ما يزيد عن 25 ألف
شخص.

وفي الأسابيع القليلة الماضية، تم إصلاق المرحلة الثانية بنجاح، وففا لنفس روح
التضامن والقيم الإنسانية، التي لصبت سابقتها. وإننا لنعتز بهؤلاء المبادرات.

لقد كانت ضرورية ومحيية بالنسبة لهؤلاء الرجال والنساء، الذين هالما عانوا من العيش في السرية.

وإننا نقدم على هذه المبادرات، كي لا يضل هؤلاء الأشخاص يعيشون على العاش، دون عمل أو خدمات صحية، ودون سكن أو استعانة من فرص التعليم. كما نعمل من أجل تعاطي تعريق الأسر، وخاصة المنعدين من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء المتزوجين بمغاربة.

وقد عززت هذه الجهود البناءة لعائلة المهاجرين، صورة المغرب، ورست الأواصر التي تجمعنا بشعوبهم منذ زمن بعيد.

ولمن يدعي أن المغرب يبتغي الحصول على الريالة الإفريقية، عن طريق هذه المبادرات، أقول: إن المملكة المغربية تسعى أن تكون الريالة للغة الإفريقية. أصحاب الغمامة والمعالي، حضرات السيدات والسادة،

إننا نذكر أننا لسنا نحن إجماع داخل هذا الاتحاد الموفر.

إن هدفنا ليس إثارة نقاش عقيم، ولا نرغب إصلافا في التعرقة، كما قد يزعم البعض!

وستلمسون ذلك بأنفسكم: فبمجرد استعانة المملكة المغربية لمكانها فعليا داخل الاتحاد، والشروع في المساهمة في تحقيق أهدافه، فإن جهودها ستكسب على لم الشمل، والدفع به إلى الأمام.

لقد ساهمنا في انبثاق هذه المؤسسة الإفريقية العتيدة، ومن الصيحي أن نتطلع إلى استرجاع مكاننا فيها.

ولحيلة هذه السنوات، وعلى الرغم من عدم توفره على موارد لصيعة، استطاع المغرب أن يصنع بلدا صاعدا، بفضل خبرته المشهود بها. وقد أضحى اليوم من بين الدول الأكثر ازدهارا في إفريقيا.

وقد نزل المغرب يؤمن بآمناء، بأنه ينبغي، قبل كل شيء، أن يستمد قوته من الاندماج في فضائه المغاربة.

غير أنه من الواضح، أن شعلة اتحاد المغرب العربي قد انصبت، في نزل غياب الإيمان بمصير مشترك.

فالحلم المغربي، الذي ناضل من أجله جيل الرواد في الخمسينيات من القرن الماضي، يتعرض اليوم للخيانة.

ومما يبعث على الأسى، أن الاتحاد المغربي يشكل اليوم، المنصفة الأقل اندماجا في الغارة الإفريقية، إن لم يكن في العالم أجمع.

فعلى الوقت الذي تصل فيه المعاملات التجارية البينية إلى 10 في المائة، بين البلدان المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، و19 في المائة بين دول مجموعة التنمية لإفريقيا الجنوبية، فإن ثلث المبادلات تغل عن 3 في المائة بين البلدان المغربية.

وفي نفس السياق، وبينما تشهد المجموعة الاقتصادية لشرق إفريقيا تصورا ملحوظا، في إقامة مشاريع اندماجية لعمومها، وتتنوع دول المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا بحالة حفيظا لضمان حرية تنقل الأشخاص والممتلكات، ورؤوس الأموال، فإن التعاون الاقتصادي بين الدول المغربية يبقى ضعيفا جدا.

والمواهبون في البلدان المغربية لا يهتمون بهذا الوضع.

وإنما لم نتحرك، أو نأخذ العبرة من التجمعات الإفريقية المجاورة، فإن الالتقاء
المغربي سينتج بسبب عجزه المزمن على الاستجابة للحمولات التي حملتها معاهدة
مراكش التأسيسية، منذ 28 سنة خلت.

أصحاب الغفامة والمعالي،

حضرات السيدات والسادة،

إن هذا الوضع يكرس صواب التوجه الإفريقي للمغرب. فبلدي اختار تفاسم خبرته
ونقلها إلى أشغائه الأبارفة. وهو يدعو، بصحة ملموسة، إلى بناء مستقبل تضامن وأمن.
وإننا نسجل بكل اعتزاز، أن التاريخ أكد صواب اختيارنا.

بالمغرب لا يدخل الالتقاء الإفريقي من الباب الضيق، وإنما من الباب الواسع. وإن
الاستقبال الحار الذي خصنا به إخواننا الأبارفة اليوم، ليليل فاصع على ذلك.

وإننا ندعو، بكل حماس، الأمم الإفريقية إلى الانخراط في الدينامية التي
أهلفتها بلادنا، وإعطاء دفعة جديدة لغارتنا برمتها.

أصحاب الغفامة والمعالي،

حضرات السيدات والسادة،

لقد حان الوقت لكي تستعيد إفريقيا من ثرواتها. فبعد عهود من نهب ثروات
الأراضي الإفريقية، يجب أن نعمل على تحقيق مرحلة جديدة من الاندماج.

صحيح أن الاستعمار ليس السبب الوحيد للمشاكل التي تعرفها إفريقيا. ولكن
آثاره السلبية ما تزال قائمة.

بمنذ زمن لحويل ونحن نوجه أنظارنا إلى الخارج، كلما تعلق الأمر باتقاء فرار أو التزام.

ألم يكن الوقت بعد، لمعالجة هذا الخلل في الرؤية؟ ألم يكن الوقت لتوجه نحو فارتنا، وأن نأخذ بعين الاعتبار رصيدها الثقافي، وإمكاناتها البشرية؟

ويعق إفريقيا اليوم، أن تعثر بمواردها وبتراثها الثقافي، وفيماها الروحية. والمستقبل كعيل بتزكية هذا الاعتزاز الصيحي من لصر فارتنا.

فإفريقيا فالدرة، بل ومن واجبها أن تصالح على مساراتها الانتخابية بنعسها، وتكون الاختيار الحر لمواهبها.

فهي تتوفر على آليات التفنين والضبط، وعلى المؤسسات الفضائية، كالمجالس الدستورية والمجالس العليا، المنول لها صلاحية البت في المنازعات والصعون المرتبطة بالانتخابات.

وعند الافتضاء، يمكن تعزيز هذه المؤسسات. فهي موجودة على أرض الواقع وتقوم بعملها. وإلا فما البانكة من وجودها؟

إن إفريقيا اليوم، يحكمها جيل جديد من الغالة المتحررين من العقد، يعملون من أجل استفرار شعوب بلدانهم، وضمن انفتاحها السياسي، وتنميتها الاقتصادية، وتفعلها الاجتماعي.

إنهم يعملون بحزم وافتناع، ولا يعيرون أحدى اهتمام، لأي "تفيل" أو تفيم من لصر الغرب.

بمنذ سنوات عديدة، لم تتجاوز معدلات التنمية في بعض بلدان الشمال نصيرتها في بعض الدول الإفريقية. وما فشل استصلاح الرأي التي يفومون بها، إلا دليل على ففدانهم للفدرة على وهم تصلعات شعوبهم.

وعلى الرغم مما تعيشه هذه الدول، من أوضاع اجتماعية واقتصادية مختلفة، وما يميزها من فياضات هشة، تعضي لنفسها الحف في إملاء نموذجها التنموي علينا.

وهنا أؤك مرة أخرى: لعد أصح مفهوم العالم الثالث متجاوزا.

أما هذه الممارسات، فهي تندرج في إطار الانتهازية الاقتصادية: بالاعتبار أو العناية التي يتم منحها لأي بلد، لا يجب، أن ترتبط بعد الآن، بموارده الصبعية، أو بالمكاسب التي يمكن تحقيقها من وراء ذلك.

أصحاب الغفامة والمعالي،

حضرات السيدات والسادة،

لعد اختار المغرب سبيل التضامن والسلم والوحدة. وإننا نؤك التزامنا من أجل تحقيق التنمية والرخاء للمواطن الإفريقي.

فنحن، شعوب إفريقيا، نتوفر على الوسائل وعلى العبقرية، ونملأ الفكرة على العمل الجماعي من أجل تحقيق تصلعات شعوبنا.

أشكركم على حسن إصغائكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته".

مفالات العلم

عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي: خطوة لتنفيذ استراتيجية تعاون جنوب - جنوب

د. عبد الفتاح الفاتحي
باحث في الشؤون الإفريقية
الرباط

تأسيسا لمبادئ منظمة الوحدة الإفريقية القائمة على احترام الوحدة الوطنية للشعوب، عمل المغرب على سمو عمل المنظمة وحيادها عن الإيديولوجيات مزجت بين حركات التحرر الإفريقية وحركات انفصالية زج بها لتحقيق مآرب استراتيجية.

ولأن هذه المنظمة انزاحت عن الحياد المطلوب لسمو العمل الإفريقي المشترك، اضطر المغرب إلى مغادرة المنظمة، بعد تسجيل تطورات متلاحقة أثبتت تشكل لوبي جزائري تحكم في اللجنة الخاصة "ADHOC" من أجل تتبع تطورات نزاع الصحراء¹، والتي أوصت في اجتماعها بالخرطوم بتاريخ 23 يونيو 1979م، بحق "الشعب الصحراوي" في تقرير المصير عبر استفتاء عام وحر، يعطيه الحق في الاختيار بين الاستقلال التام أو الإبقاء على الحالة العادية، كما اعتبرت أن الاتفاقية الثلاثية لمدريد، لم تكن تتعلق "إلا بتحويل إدارة الإقليم إلى المغرب وموريتانيا"².

وانطلاقا من رؤية انفصالية سطرت توجيهات تم عرضها للتصويت عليها في مؤتمر القمة الإفريقي الذي انعقد بالعاصمة الليبيرية منروفيا ما بين 17 و20 يوليو سنة 1979م، وبموافقة ثلثي الأعضاء تمت المصادقة على قرار يوصي بوقف إطلاق النار وإجراء استفتاء في الصحراء³. إلا أن هذه

1 - تكونت من موسى تراوري رئيس مالي وسيكوتوري رئيس غينيا والجنرال أبسنجو رئيس نيجيريا وهوفويت بواني رئيس ساحل العاج ونيريري رئيس تنزانيا.

2 - هذا التفسير المنحاز فرضته الجزائر على مؤتمر القمة الإفريقي سنة 1979م.

3 - Edmond Jouve, L'O.U.A, presses universitaires de France, Paris, 1984, p : 145.

القرارات رفضت مغربيا حينما قال وزير خارجيته محمد بوسطة إن "القرارات المتخذة باطلة وأن تلك القرارات شيء والوضع في الميدان شيء آخر"⁴.

ورغم ذلك، استمر المغرب متشبثا بعضويته، وملتزما التزاما حكيما بالميثاق التأسيسي لمنظمة الوحدة الإفريقية التي يجب أن تكون وسيطا لا طرفا في النزاع، إلى أن تأكد أن حياد المنظمة أعدم عمليا، بعد قبول عضوية تنظيم انفصالي في مخالفة تامة لشروط عضوية المنظمة ولاسيما مضمون المادة الرابعة من ميثاقها⁵.

إلا أن ذلك لم يحد بالمغرب عن تشبته بالعلاقات الروحية والثقافية والاقتصادية مع الدول الإفريقية. واستمر حرص المغرب على الحضور ضمن المؤسسات الاقتصادية، فتطورت سياسته الخارجية نحو التطبيع، وتجاوز العناد السياسي التي ظلت تحترفه بعض الدول من أجل مصالح سياسية ضيقة من قبيل حسم سباق الهيمنة على المنطقة.

1 - تجديد مبادئ السياسة الخارجية للمغرب في إفريقيا

إن قناعة المغرب بعمقه الإفريقي أصيلة، فقد ظل مكرسا سياسته لكل ما يفيد إفريقيا عبر شركات أثبتت الوقائع أنها كانت على قدر كبير من النجاح. لأنها ظلت تستوعب التحولات المستقبلية، والحاجة إلى الإعداد لها، انطلاقا من رؤية استراتيجية وتخطيط استشرافي. ولذلك حرصت المملكة المغربية على تمتين العلاقات الاقتصادية والتنموية مع البلدان الإفريقية وتكريس نجاح الاستثمارات المغربية. ولأن نجاح الاقتصاد رهين بالأخلاق السياسية، فقد سعت استراتيجية المغرب إلى تحييد التعاون الاقتصادي عن ملف قضية الصحراء، وهو ما زاد من مصداقية التعاون مع المغرب.

ولأن المغرب ضبط رهاناته استشرافيا، فإن دولا استغلت الغياب السياسي للمغرب داخل الاتحاد الإفريقي لاستصدار الكثير من القرارات التي تمس بالاتحاد ضد المغرب. إلا أن ذلك زاد في إيمان المملكة بأن واقع التحديث كفيل بأن يفرض نفسه على بؤس التسييس، الذي رهن تنمية إفريقيا لسنوات عديدة.

4 - Le Monde, du 22/23/7/1979.

5 - وتنص على أنه "لكل دولة عضو إفريقية مستقلة ذات سيادة الحق في أن تصبح عضوا في المنظمة".

وحافظ الاقتصاد المغربي على حياديته في إفريقيا حتى في أحلك فترات الضغط، التي تعرض لها الموقف التفاوضي المغربي حول الصحراء بسبب انحياز الأمين العام للأمم المتحدة السابق بان كيمون ومبعوثه الشخصي إلى الصحراء كريستوفر روس للطرح الجزائري⁶.

وكان طبيعياً، حينها أن يتوقف الدارسون عند تقييم العلاقة بين العائد الاقتصادي والسياسي للمغرب في إفريقيا. وعلى أي أساس تتحدد العلاقات الدبلوماسية المغربية مع شركائه الأفارقة. سيما أن هناك بونا شاسعا بين نجاحات الاقتصاد المغربي في إفريقيا وإخفاقات أدائه الدبلوماسي. وهو أمر طرح تساؤلات حول الاقتصاد المواطن والدعوة إلى ما سمي بسياسة الاقتصاد والدبلوماسية في الفضاء الإفريقي للدفاع عن قضية الصحراء⁷.

ولأن منطق السياسة الخارجية المرتبط حتماً بإفريقيا، ظل على الدوام يعي بأن الخصومة السياسية مع منظمة الوحدة الإفريقية لا تعدو أن تكون خصومة مع ثلاثة دول تنازعانه الرغبة في الزعامة. ولذلك فإن سقف التعاون مع أوروبا لم يخل من تفكير في مستقبل إفريقيا، كأن يجسد المغرب الجسر المثالي الذي يربط القارتين الأوربية والأفريقية.

إنه بعودة المغرب سياسياً إلى حضنه الإفريقي، تكون القارة الإفريقية قد أغنت إمكانات تنميتها ببديل أكثر واقعية وجدية، وأكد أن ذلك سيجرك كثيرا من المياه الراكدة في إفريقيا، بعد التدافع في الكثير من المحطات الاقتصادية والسياسية. سيما وأن العودة إلى الواجهة الإفريقية سياسياً هي مواجهة ميدانية أجبر عليها لإعادة ضبط علاقاته الإقليمية على أسس سليمة، وجد موضوعية.

2 - المغرب يعود إلى إفريقيا باستراتيجية تعاون جنوب - جنوب

اقتنع المغرب بتعميق نفوذه في عمقه الإفريقي بالتزامن مع الأدوار التنموية في العديد من دول غرب إفريقيا، وأن هذه التجربة مطلوبة مشاركتها مع دول إفريقية أخرى. وتبعاً لذلك كان قرار العودة السياسية إلى الاتحاد الإفريقي، مقترنا باستراتيجية مدروسة أساسها الشراكة الندية، والتعاون التكاملي والتضامني فيما بين الدول الإفريقية.

6 - أصدر الأمين العام السابق للأمم المتحدة بان كيمون تصريحاً اعتبر فيه المملكة المغربية "بلداً محتلاً للصحراء"، وذلك عقب زيارة جولة قاده إلى الجزائر ونجيمات تندوف سنة 2016م.

7 - مداخلة عبد الفتاح الفاتحي حول "تطور قرارات مجلس الأمن حول الصحراء وآفاق الدبلوماسية المغربية" في ندوة "ملف الصحراء وسط المتغيرات الجيوستراتيجية.. تشخيص وسيناريوهات"، نظمها بالرباط المركز المغربي للدراسات الأمنية وتحليل السياسات، بشراكة مع المركز المغربي للدبلوماسية الموازية وحوار الحضارات بتاريخ 24 أبريل 2014م.

ومن جهة أخرى، فإن حوافز العودة تجاوزت طموحات وطنية، بل تعدته إلى أدوار دولية في إفريقيا، ترتبط أساسا بعضوية المغرب المحورية في الاستراتيجية العالمية لمحاربة الإرهاب. ولا يمكن للمغرب القيام بهذه الأدوار الجيوسياسية بدون مواءمة بين الحضور الاقتصادي والحضور السياسي في إفريقيا. وفقا لهذه الرهانات توجه المغرب نحو إفريقيا بامتداد مخطط وطني⁸ في الأقاليم الجنوبية يروم إحداث مشاريع جد مهيكل.

وتروم الاستراتيجية تحقيق أهداف للتأثير في الفضاء الجهوي لمنطقة الساحل والصحراء، ثم ابتكار استراتيجية تعاون جنوب - جنوب للتأثير في باقي الدول الإفريقية، ولمحاصرة خطاب التسييس والتحريض على الوحدة الترابية للمملكة المغربية من داخل هياكل الاتحاد الإفريقي، والذي يفترض فيه الحياد من أي توظيف مشبوه يستهدف الأمن القومي للدول الإفريقية.

تبعاً لشمولية استراتيجية تعاون جنوب - جنوب، تشكل وعي جديد يقضي بضرورة تطوير أسلوب عمل الدبلوماسية المغربية، حتى تنسجم مع مبادئ الاستراتيجية المغربية لكامل المجال الجغرافي الإفريقي، تم توسيع مجال الدبلوماسية الملكية بالقارة الإفريقية، بالانفتاح على بلدان "جديدة" في العلاقات المغربية الإفريقية، بالمساعي الاقتصادية والتنموية أكثر منها مساعي سياسية؛ فالمغرب يتوجه إلى إفريقيا ليس لموقف سياسي، بل من أجل رهانات اقتصادية وتنموية بالأساس.

ويعود المغرب إلى الاتحاد الإفريقي لعرض مقاربتة التنموية عبر استراتيجية تعاون جنوب - جنوب، بديلاً واقعياً وأكثر براغماتية من طوباويات العرض السياسي الجزائري. حيث لا تنفك السياسة الخارجية الجزائرية تغمس مشكلات إفريقيا في خيال الاشتراكية الطوباوية. وحاولت جاهدة فرض أهداف موعلة في التجريد على الاتحاد الإفريقي. "وهكذا يكون التحرر الكامل لإفريقيا جزءاً من كفاح الشعب الجزائري، في سبيل استقلاله وكرامته. ويعني هذا بالنسبة إلينا التزاماً إيجابياً إلى جانب الشعوب الإفريقية المكافحة ضد الاستعمار والتمييز العنصري"⁹.

4 - إفريقيا بين العرض التنموي المغربي والعرض السياسي الجزائري

أ - العرض المغربي:

فبعد فراغ الحضور السياسي داخل إفريقيا مع التركيز على المدخل الاقتصادي التنموي في دول إفريقيا الغربية أضحت استراتيجية تعاون جنوب - جنوب في بعدها التنموي أداة تتلاءم ورهانات

8 - إطلاق المغرب النموذج التنموي الجديد بالأقاليم الجنوبية، وفي إطاره أعلن جلالة الملك نصره الله في ذكرى 40 و 41 للمسيرة الخضراء عن مجموعة من المشاريع الكبرى بجهات الصحراء.

9 - الميثاق الوطني لجهة التحرير الوطني. الجزائر، مصلحة الطباعة للمعهد التربوي الوطني، 1976م.

المغرب في أقاليمه الجنوبية ومع ما هو مكلف به دوليا من خلال تنسيق مع القوى الكبرى التي لها طموحات في المنطقة.

وإن تكن الاستراتيجية المغربية أكثر إقناعية في مبادئها ومناهجها، إلا أنها تعاني تحديات - (الاعتراض على ما هو جديد) -، إلا أن إيجاد الضمانات القانونية لحماية الاستثمارات والشروع في تدشين المشاريع يعطي مصداقية أكبر، سيما أن هذه المشاريع ترتبط بالواقع اليومي للمواطن الإفريقي. الأمر يفقد العرض السياسي الجزائري توازنه في النقاشات الإفريقية.

إن توسيع المدى الدبلوماسي المغربي وفقا لاستراتيجية التعاون التي تستهدف كل الدول بما فيها تلك التي تدعم جبهة البوليساريو، فإن ذلك يضيق بالضرورة مساحات تحرك الدبلوماسية الجزائرية، بل وتفرض عليها تحركا أكبر. ويصبح ذلك تحديا وإنهاكا سيعثر أوراق الجزائر بعد أن استطابت وضعها سابقا مريحا لأدائها الدبلوماسي إفريقيا طيلة مدة انسحاب المغرب من منظمة الاتحاد الإفريقي¹⁰. ويترتب عن ذلك رفع كلفة الأداء الدبلوماسي الجزائري في إفريقيا بما يزيد من أعباء خزانة الدولة الجزائرية.

ولأن الدبلوماسية المغربية اعتمدت الشق الاقتصادي مدخلا لمواجهة تصرفات الجزائر المتغلغلة سياسيا في القارة، فإن ذلك يشكل إرهاقا مكلفا للدبلوماسية الجزائرية، لقلة تجربتها وخبرتها فيما يطرح العرض الاقتصادي من بدائل تنمية أكثر طلبا لدى الأفارقة.

وتبعا لذلك، فإن توسيع المدى الجيوسياسي في الدبلوماسية المغربية الجديدة يطرح خيارا بديلا على دول إفريقيا، هل هي مع العرض الاقتصادي التنموي المغربي أم مع العرض السياسي الجزائري؟ وتقييم هذا السؤال يطرح ضغطا على تقليدية الدبلوماسية الجزائرية، لأنها ستبدو أضعف أمام عرض مغربي أكثر عصرنة ومناسبة مع تطلعات القارة الإفريقية، وأهدافه أقرب إلى الواقعية، وأبعد من حلم رهانات سياسية بادية في العرض الجزائري.

ب - العرض السياسي الجزائري:

تسعى الجزائر بشكل متواصل لتقوية نفوذها في إفريقيا كي تمارس به توجيهها للقرار السياسي الإفريقي، من خلال محورين؛ "الأول: مكافحة الإرهاب. والثاني: الاهتمام بالتحديات والمشاكل

10 - انسحب المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية عقب قبول انضمام ما يسمى بـ "الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية" رسميا خلال القمة العشرين لمنظمة الوحدة الإفريقية، بأديس أبابا يوم 12 نوفمبر 1984م.

التي تعانيتها إفريقيا. وكان الاهتمام الأول يدور حول حشد الجهود الإفريقية لمكافحة الظاهرة. أما الثاني، فيتضح من خلال استحداث ولأول مرة منذ الاستقلال منصبا وزاريا للشؤون الإفريقية، لاستغلال هذه القمة لحد أقصى، خصوصا مع الرئيس الجديد. وحتى تكون قرارات المؤتمر ذات مصداقية، لابد أن يكون حضورا مكثفا لرؤساء وملوك إفريقيا. لذلك فإن الرئيس نجح في إقناع 45 رئيس دولة وحكومة من مجموع 53 رئيس دولة إفريقية¹¹.

تستوعب الجزائر صعوبات بداية الأداء الدبلوماسي المغربي داخل الاتحاد الإفريقي، لذلك تحاول مصارحته سياسيا، بحكم الخبرة والتراكم. وواضح أن توظيفها لمجلس السلم والأمن التابع للاتحاد الإفريقي في جلسة 23 مارس 2017م جعل منها محاكمة سياسية للمغرب أثناء مناقشة تطورات الوضع في منطقة الكركرات بالصحراء.

وحيثما فضل المغرب عدم الحضور لاجتماع مجلس السلم والأمن الإفريقي، فمن منطلق أن عودته بشكل فعال إلى الاتحاد يستلزم وقتا لخلق التوازن داخل هياكل الاتحاد الذي لا يزال تحت هيمنة جزائرية وجنوب إفريقية. أي أن واقع الحال يحتاج إلى إصلاحات هيكلية تمكن الاتحاد من أن يحقق شروطا موضوعية لضمان حياده فيما يخص مناقشة قضية الصحراء.

5 - العرض التنموي المغربي في مواجهة الوصاية على هياكل الاتحاد الإفريقي

ومن تبعات هذا الوضع، فرض تحديات جانبية أخرى على العرض الاقتصادي والتنموي المغربي في خطابات الاتحاد الإفريقي. فعودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي لا تكمن أهميتها الاستراتيجية في مواجهة القرارات المعادية للمغرب داخل الاتحاد الإفريقي فحسب، ولكن بالعمل على ترقية وتطوير خطاب الاتحاد بما يجعله يلامس قضايا أكثر أهمية وإلحاحية، كالبعد الاقتصادي والتنموي.

وإذ يقدم المغرب عرضه الاقتصادي والتنموي البديل، فإنه أيضا يقدم الضمانات العملية على جدية ومصادقية التوقيع على أزيد من ألف اتفاقية مع العديد من الدول الإفريقية. وذلك بالعمل فورا في التنفيذ. حيث بدأ العمل على تنفيذ مشروع أنبوب الغاز المغرب - نيجيريا ومشاريع تنمية لرواندا.

11 - عشوي علي، سياسة الجزائر في منطقة الساحل الإفريقي، رسالة ماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 1997م، ص: 72-74.

وفي هذا الإطار، ومباشرة بعد التوقيع على العديد من الاتفاقيات البينية بين المغرب والدول الإفريقية نشطت الدبلوماسية المغربية للمرور إلى العمليات الإجرائية للتنفيذ. فبعد توقيع اتفاقية بهذا الشأن بين المغرب ونيجيريا بأبوجا في دجنبر 2016م، ارتفع التنسيق الثنائي بين البلدين على أعلى مستوى وبشكل متواصل لتفعيل المشروع، ويبرز ذلك واضحا في ما يلي:

- ترأس جلالة الملك محمد السادس جلسة عمل بالدار البيضاء في 13 دجنبر 2016م خصصت لدراسة الجدوى التقنية وتمويل مشروع خط أنابيب الغاز الرابط بين نيجيريا والمغرب.

- ذكر بلاغ للديوان الملكي في فاتح مارس 2017م أن جلالة الملك محمد السادس، أجرى مباحثات هاتفية مع رئيس جمهورية نيجيريا الفدرالية محمدو بوهاري تناولت المشروع الاستراتيجي خط أنابيب الغاز الاطلنتي المغرب - نيجيريا.

- سلم الوزير المنتدب لدى وزير الشؤون الخارجية والتعاون، السيد ناصر بوريطة، 23 مارس 2017م بأبوجا، رسالة خطية من الملك محمد السادس إلى السيد محمدو بوهاري رئيس الجمهورية الفيدرالية لنيجيريا.

- إطلاق المجموعات الاستثمارية المغربية برواندا مشاريع صناعية وخدمية، ومنها سوق مشتركة لشرق وجنوب إفريقيا (الكوميسا) وبناء مجموعة "كوبر فارما" وحدة لصناعة الأدوية في رواندا.

العودة إلى الاتحاد الإفريقي، نحو مقاربة تنمية لحل النزاع المفتعل في الصحراء.

يتجدد اهتمام الاتحاد الإفريقي بملف الصحراء كليا ونوعيا على المستوى الإجرائي، بحكم المتغيرات الدولية والإقليمية. وسيبقى تناول هذا الملف تحت تأثير التزامات وقرارات تاريخية صادرة عن الاتحاد الإفريقي منذ انسحاب المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية، وطيلة عمل الاتحاد الإفريقي. مما يستدعي إعادة تكييف مناقشات قضية الصحراء في سياق أكثر موضوعية. وذلك بما يمكن من:

✓ العمل على ضبط قضية نزاع الصحراء وفق المقتضى القانوني لمواد الميثاق التأسيسي للاتحاد الإفريقي ومؤسساته المتصلة بالشق القانوني لنزاع الصحراء.

✓ تجريب المرافعات القانونية لملف الصحراء ضمن مؤسسات الاتحاد.

✓ تكييف عناصر الصراع مع اختصاصات مؤسسات الاتحاد الإفريقي.

✓ الإبقاء على جبهة البوليساريو داخل الاتحاد بقاء متحكم في نفوذه السياسي (بقاء الشروط).

أما على المستوى السياسي فيمكن تصور حدوث تطور كبير في اتجاهات أعضاء دول الاتحاد الإفريقي، ولا سيما اتجاهاتهم السياسية حيال سبل إيجاد تسوية واقعية لنزاع الصحراء. وذلك بإعادة تقدير تطور اتجاهات إفريقيا حول الصحراء في منظمة الوحدة الإفريقية (1963-2002م) خيار تنظيم الاستفتاء في بداية الثمانينيات وتقدير تطور ذات الاتجاهات اليوم داخل الاتحاد الإفريقي بعد عودة المغرب.

ويترتب عن ذلك:

✓ تقييم النقاش السياسي لملف الصحراء داخل منظمة الوحدة الإفريقية مؤسسيًا.

✓ تقييم الاتجاهات السياسية السائدة حول نزاع الصحراء داخل الاتحاد الإفريقي ومقارنتها بالتوجهات السياسية داخل منظمة الوحدة الإفريقية.

✓ التخطيط لمناخ جديد من التوجهات السياسية يدبر فيه ملف نزاع الصحراء بواقعية وحيادية مقبولة.

✓ العمل على مزيد من تخفيف علاقة الاتحاد بملف الصحراء إلى حين ملائمة العودة العملية واقعا فعليا.

على المستوى الدبلوماسي، تكمن أهمية عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي في أنها هدمت الجدار الذي أقامته الدبلوماسية الجزائرية لمحاصرة المغرب، ونقضت حديثها مع البوليساريو عن عزلة دولية للمغرب بسبب ملف الصحراء. إذ أن قدرة المغرب على التمدد الجيو استراتيجي داخل الفضاء الإفريقي، ونهج دبلوماسيته الجديدة مع مختلف الدول الإفريقية أيا كانت مواقفها السياسية من نزاع الصحراء كسرت الخطة الجزائرية، حيث ربط المغرب علاقاته الاقتصادية مع الدول الإفريقية عبر توقيع أزيد من ألف اتفاقية تعاون في عدة قطاعات.

وتتطور تداعيات ذلك إلى:

✓ إعادة تحيين العقيدة السياسية الجديدة للدبلوماسية المغربية.

✓ تحيين قناعات حلفاء المغرب حول اتجاهات الحل الأكثر واقعية لحل نزاع الصحراء.

- ✓ تعزيز التنسيق الدبلوماسي مع مختلف الدول التي اعترضت على عودة المغرب بما فيها جنوب إفريقيا.
- ✓ التأكيد على أن الوجود المغربي مفيد للاتحاد كفضاء يجب أن يعكس روح الحكامة وقيم العدالة.
- ✓ توجيه أولويات الاتحاد صوب ملفات أكثر برغماتية لما يسود من نقاش داخل قمم الاتحاد.
- ✓ ضمان رصيد جديد لاستراتيجية الإنهاك عبر إطالة أمد الصراع.
- ✓ تعويم دفعوات الخصم بالمناقشات داخل مؤسسات الاتحاد (تمرين سياسي وقانوني وتعزيز التنسيق للشركات الاقتصادية مع الحليف).
- ✓ تعطيل نزيف الضغوط السياسية لقرارات الاتحاد الإفريقي المرتبطة بملف الصحراء (تعطيل القرارات في قنوات صياغتها أي داخل أجهزة الاتحاد، تعطيل مهمة المبعوث الإفريقي إلى الصحراء).
- ✓ التقاط النفس الدبلوماسي والسياسي على أمل استعادة التوازن المفقود في لعبة الصراع من داخل المؤسسات الإفريقية.

7 - تقييم المدى الدبلوماسي المغربي والجزائري في إفريقيا

- وتقيما للعرض الجزائري والمغربي تكون إفريقيا أمام اختيارين لتدبير تحدياتها، فإما أن تستمر وفية للتسييس الجزائري أو تنفتح على بدائل أكثر برغماتية كما هو الحال بالنسبة للعرض المغربي، أو تستوعبهما معا.
- ولا يبدو أن العودة المغربية إلى الاتحاد الإفريقي ستبقي الامتياز للجزائر فيما يخص القرارات السياسية على المستوى المتوسط والبعيد. ذلك لأنها عودة لها تداعيات جيواستراتيجية، ستغير حتما في دينامية المنظمة القارية؛ وتفرض بالضرورة على الأفارقة إعادة ترتيب اتجاهاتهم السياسية ومراجعة النهج السياسي للمنظمة.
- ومما لا شك فيه، أن عودة المغرب إلى إفريقيا أعادت النقاش حول أسلوب عمل المنظمة القارية، وسعيها إلى تطوير استراتيجية معالجة أزمات إفريقيا، ورؤيتها لإعادة التوازن بين المقاربة

المسيسة للنزاعات والمقاربة التنموية. بعد تجاوز ألف اتفاقية على طاولة دول الاتحاد الإفريقي سيجعل الارتهان بدفعات المقاربة التقليدية السياسية للبوليساريو والجزائر ضعيفة الحجية أمام متطلبات الواقع الإفريقي.

إن جوهر التقارير الدولية حول عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي ومنه التقرير الأخير لأنطونيو غوتيريس عن الحالة في الصحراء لسنة 2017م، تحدث عن إشادة بالدور الذي يقوم به المغرب لصالح إفريقيا والمجتمع الدولي.

وينتظر أن تتعزز هذه التقييمات بعد استدامة نفس عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي، والتسريع بوتيرة توسيع النفوذ الاقتصادي من خلال تفعيل العديد من الاتفاقية التي أشرف جلالة الملك على توقيعها، ومنها الاتفاقيات التي تنجز على أمد قصير، ولا تتطلب موارد مالية ضخمة، لكنها تأسيسية بحكم عائداتها المالية التي تخلق مرجعية للاندماج الاقتصادي أفقيا في العلاقات البينية للدول المعنية باستراتيجية تعاون جنوب - جنوب.

ويمكن المغرب من الوقت لتعميق مرافعاته حول نجاعة عرضه السياسي في إفريقيا، انسجاما مع الرؤية الأمتية، وكذا وفقا للمشارك في طموحات القوى الدولية. ذلك أن خارطة الطريق في استراتيجية تعاون جنوب - جنوب، راعت طموحات القوى الكبرى (أمريكا وفرنسا وألمانيا والصين والهند...) وأخرى قارية كـ(جنوب إفريقيا ونيجيريا وإثيوبيا وغانا...).

غير أنه على المستوى المحلي، تتمثل استراتيجية تعاون جنوب - جنوب في توسيع مجال مخطط تنموي يستهدف جهات الصحراء، بمشاريع اقتصادية كبرى ومهيكلية، حتى تمتد للتأثير في المحيط الجهوي لمنطقة الساحل والصحراء.

وتبعا لذلك، تتوافق المقاربة المغربية لمواجهة التحديات الآنية مع رؤية الأمم المتحدة، التي ترى أن تعزيز البنية التحتية للدول، وترقية واقعها الاقتصادي يشكل أحد المداخل الاستراتيجية لمحاربة الإرهاب والتطرف، وبالتالي التحكم في ما يهدد الأمن والسلم جهويا وقاريا.

المغرب وإفريقيا: نحو آفاق جديدة لعلاقة متجددة

د. عبد الله بوصوف

الأمين العام لمجلس الجالية المغربية بالخارج

1. البعد الإفريقي للدبلوماسية الملكية

في زمن غياب زعماء إفريقيا الكبار كالمغفور له جلالة الملك محمد الخامس وجمال عبد الناصر ونيلسون مانديلا... في زمن أوشكت فيه إفريقيا على الاستسلام لقدرها المطبوع بالخضوع وتداعيات الحروب الأهلية والتقلبات المناخية والنزوح الجماعي وتفريغ القارة السمراء من سكانها نحو الشمال بعيدا عن العطش والجوع والعنف والإرهاب...

وفي كل زيارة يقوم بها جلالة الملك محمد السادس إلى إفريقيا، يتم استقباله كقائد جديد يحمل آمال شعوبها وحلمها بمستقبل واعد، ويتقدمهم للدفاع عن مصالحهم... قائد وثقت فيه شعوب إفريقيا وقادتها، وأبان عن انشغاله بهموم تنمية القارة من خلال زيارته لمدنها ولقراها ولأدغالها...

ومن ثم، فإن الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك بمناسبة الذكرى الحادية والأربعين للمسيرة الخضراء من مدينة دكار عاصمة السنغال¹، يحمل في شقه الأول سابقة تاريخية لملوك المغرب، وفي شقه الثاني أن الخطاب انطلاقا من السنغال ليس مدعاة للتعجب؛ بل هو أمر طبيعي نظرا لمواقف السنغال التاريخية الثابتة في مساندته لقضايا المغرب العادلة، وفي مقدمتها قضية الصحراء المغربية... بل حتى إن الرئيس عبدو ضيوف، الرئيس السابق لهذا البلد الإفريقي، علق على خروج المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية سنة 1984م بقوله "لا يمكن تصور المنظمة بدون المغرب..."

وبالإضافة إلى الروابط التاريخية والروحية، فإن السنغال يعد إحدى الدول الديمقراطية بإفريقيا، التي تحترم المؤسسات الدستورية وصناديق الاقتراع، كما تتمتع باستقرار سياسي واجتماعي

1 - وجه صاحب الجلالة الملك محمد السادس، يوم الأحد 06 نونبر 2016م، من العاصمة السنغالية دكار خطابا ساميا بمناسبة الذكرى الحادية والأربعين للمسيرة الخضراء، وينظر نص الخطاب في الموقع:

<https://www.maroc.ma/ar>.

ملحوظ... أما فخامة الرئيس ماكي سال فقد رأى في الحدث بأن جلالة الملك محمد السادس يريد أن يخاطب إفريقيا والأفارقة...

استعمل جلالة الملك، في خطاب المسيرة الخضراء 6 نوفمبر 2016م، أسلوبا مباشرا لا يحتاج لكثير عناء لشرح مراميه ذات البعد القاري. وهذا ما يبرر اتخاذ خريطة إفريقيا كخلفية حملت أكثر من رسالة مباشرة بأن المغرب مكون إفريقي، وأن مستقبل المغرب في إفريقيا ومستقبل إفريقيا في المغرب...

وهو الانشغال نفسه الذي جعل المغرب يوجه بوصلته الاقتصادية والسياسية نحو الجنوب في إطار علاقة جنوب - جنوب، مدعوما بمضمون "التصدير" الدستوري الذي "يلزم المغرب بتقوية علاقات التعاون والتضامن مع الشعوب والبلدان الإفريقية، ولا سيما مع بلدان الساحل وجنوب الصحراء"²...

وهو ما شكل في حد ذاته ثورة هادئة قادها جلالة الملك من خلال تنويع زياراته من دول غرب إفريقيا الفرنكفونية إلى شرق إفريقيا الأنغلوفونية، وكانت مناسبة لشرح عدم كفاية العلاقات مع هذه الأخيرة بأنها ليست وليد التقصير أو الإهمال، بل هو فقط البعد الجغرافي والاختلاف اللغوي والموروث التاريخي...

ومن نتائج هذه الثورة الهادئة نجد تحقيق شراكات متعددة المجالات مع دول وازنة في شرق إفريقيا، كإثيوبيا ورواندا وتنزانيا...

لقد أسهم أيضا هجر المغرب لكرسيه داخل منظمة الوحدة الإفريقية سنة 1984م في عدم تكثيف علاقات التعاون والتضامن بين العديد من الدول الإفريقية، وفسح المجال لأعداء الوحدة بتسميم علاقات المغرب مع دول إفريقيا؛ وهو ما عجل برغبة المغرب في استعادة مكانه الطبيعي ضمن الأسرة الإفريقية بدورة كيغالي (2016م)، بعيدا عن أي منطق تكتيكي مجاني، ف"البيت الإفريقي بيتنا جميعا ولا يحتاج فيه المغرب لاستئذان أحد للدخول"³.

2 - انظر: تصدير دستور المملكة المغربية.

3 - وجه صاحب الجلالة الملك محمد السادس رسالة سامية إلى القمة الـ 27 للاتحاد الإفريقي التي تنعقد بالعاصمة الرواندية كيغالي. وقد سلمت الرسالة الملكية يوم الأحد 17 يوليوز 2016م إلى الرئيس التشادي إدريس ديبي إتنو الرئيس الحالي للاتحاد الإفريقي من قبل السيد رشيد الطالبلي العلمي، رئيس مجلس النواب سابقا.

وبالمقابل، تضمن خطاب المسيرة إشارة ضمنية موجهة إلى أطراف يزعمها عودة المغرب إلى البيت الإفريقي، مفادها أن هذه العودة مسألة وقت فقط، وذلك لتوفر المغرب على أغلبية ساحقة من المؤيدين والمناصرين...

كما أعلن الخطاب، بعد ذلك، عن مضمون "دفتر تحملات" المغرب تجاه شعوب ودول إفريقيا، وفي مقدمتها أن المغرب هو أحسن مدافع عن مصالح إفريقيا في المحافل الدولية، ومستعد لتقاسم تجربته مع دول إفريقيا في مجالات الأمن ومحاربة التطرف والإرهاب، وأيضا مواصلة الجهود لمعالجة ظاهرة الهجرة وربطها بالتنمية وكرامة المهاجرين، وأيضا المحافظة على الاستقرار والأمن وحل الخلافات بالطرق السلمية...

أكثر من هذا، فإن المغرب قد جعل من قمة المناخ العالمية بمراكش (كوب 22)⁴ قمة من أجل إفريقيا؛ وذلك عبر بلورة رؤية موحدة للدفاع عن مطالب القارة السمراء؛ خاصة في موضوعي التمويل ونقل التكنولوجيا...

إن استعادة المغرب لمكانه الطبيعي في إفريقيا هو مناسبة لتصحيح مغالطات تبنتها أطراف معادية للوحدة المغربية وللمغربية الصحراء الثابتة؛ خاصة داخل المقر الفعلي لقرارات منظمة الاتحاد الإفريقي أي مفوضية الاتحاد...!!، وبالتالي فإن المغرب ونظرا لحساسية المرحلة يحتاج إلى حكومة جادة ومسؤولة تتبنى سياسات شاملة لكل دول إفريقيا والالتزام بتعهدات المغرب مع شركائه...

وفي هذا السياق، لمسنا نبرة قوية في مخاطبة من كلف بتكوين الحكومة بعد انتخابات 7 أكتوبر 2016؛ خاصة أن مضمون دستور 2011م يمنح للملك الحق في قبولها أو رفضها⁵... وهو ما جعله حريصا على تشكيل حكومة برامج وأولويات، وعلى رأسها إفريقيا، كما نبه على عدم تساهله في عدم تشكيل حكومة كفاءات مؤهلة باختصاصات قطاعية مضبوطة... بعيدا عن منطق الغنيمة الحزبية والانتخابية...؛ مما يستدعي أيضا التفكير في خلق قطاع حكومي موجه إلى إفريقيا كخلق وزارة منتدبة للشؤون الإفريقية في الفقرة المخصصة للحكومة.

4 - انعقدت بمدينة مراكش الدورة الثانية والعشرون لمؤتمر الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية، بشأن تغير المناخ المؤتمر العالمي (كوب 22)، وذلك خلال الفترة ما بين 7 و18 نونبر 2016م.

5 - جاء في الفصل 47 من دستور المملكة المغربية (2011م) ما يلي: "يعين الملك رئيس الحكومة من الحزب السياسي الذي تصدر انتخابات أعضاء مجلس النواب، وعلى أساس نتائجها. ويعين أعضاء الحكومة باقتراح من رئيسها..."

للإشارة، فإنه ليس من قبيل الصدفة أن يوجه جلالة الملك خطاب المسيرة الخضراء لسنة 2015م من مدينة العيون عاصمة الأقاليم الجنوبية، التي تتوفر على مقومات الاستقرار والأمن وبتعلق أبناء الأقاليم الجنوبية بمغربياتهم وبالنظام السياسي، وهو ما يبرر ارتفاع نسبة مشاركتهم في كل الاستحقاقات الانتخابية... وتوفرها على إمكانات مهمة لتكون محورا للتعاون الاقتصادي بين المغرب وبين عمقه الإفريقي...

إن المغرب نجح في قلب معادلات سياسية واقتصادية من خلال تنويع الشركاء مع احتفاظه بالشركاء التقليديين، كما أظهر نضجا سياسيا بإعلانه الرغبة في استعادة مكانه الطبيعي داخل الأسرة الإفريقية...

والأكيد أن أعداء الوحدة الترابية يفقدون كل يوم مصداقية أطروحتهم أمام العالم، وهم يرون كيف تستقبل شعوب إفريقيا من شرقها إلى غربها جلالة الملك محمد السادس كقائد قاري جديد، قادر على التعبير عن آمالهم في التنمية والكرامة...

2. المغرب والمسؤولية التاريخية في تصويب بوصلة "الاتحاد الإفريقي"

لقد جعلت سياقات تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية في 25 ماي 1963م بالعاصمة الإثيوبية أديس أبابا، أو وريثها منظمة الاتحاد الإفريقي سنة 2002م، وانقسام مؤسسيها بين عدة إيديولوجيات فكرية وتحالفات سياسية أملت ظروف تلك الفترة، حيث الثنائية القطبية وأوج الحرب الباردة، جعلت النتائج التي جنتها منظمة القارة السوداء دون طموحات شعوبها.

وبالرغم من تغني كل المتحكمين بمفاتيحها بالدفاع عن شعوب إفريقيا، فإن الواقع لا يحمل أي بصمة لاستشارة شعبية أو استفتاءات فيها للشعوب كلمتها بخصوص أهداف واستراتيجيات المنظمة، أو تبدي رأيها في قراراتها كما هو الشأن مثلا بالنسبة إلى الاتحاد الأوروبي الذي استطاع إيجاد حل لإشراك الشعوب في قراراته من خلال البرلمان الأوروبي؛ وهو ما يمنع ظهور أي أثر لحسنات المنظمة على حياة الشعوب الإفريقية أو حل المشاكل التي تتخبط فيها هذه الشعوب

وهكذا، انشغلت المنظمة فقط بتحقيق أهواء شخصية وتحالفات ضيقة على أساس عرقي أو تاريخي بين دول تقاسمت البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية نفسها وأيضا التاريخ الاستعماري نفسه؛ وهو ما أدى إلى إصابة المنظمة التي من المفترض أنها تحقق الوحدة الإفريقية بنوع من "التوحد السياسي"، حيث لم تقدر على مجارة التطور المجتمعي والوعي السياسي لشعوب القارة

المتعطشة إلى النماء والانفتاح. أكثر من ذلك فقد واجهتها بالحديد والنار والتجويع، ويكفي أن نذكر أن القارة الإفريقية عرفت، بين سنتي 1960 و2001م، أكثر من 100 انقلاب عسكري، سواء في الصومال أو ليبيريا أو سيراليون أو رواندا أو بوروندي أو الكونغو وقبل تلك الدول في ليبيا القذافي وغيرها... دون الحديث عن الحروب الأهلية والنزاعات حول الحدود بين أكثر من دولة إفريقية، وهنا لنا أمثلة في الصراع بين الصومال وبين إثيوبيا حول منطقة الأوجادين؛ أو الصراعات على الحدود الموروثة عن الاستعمار التي لم تأخذ بعين الاعتبار الخصائص المشتركة والطابع القبلي والعرقي للعديد من المناطق الإفريقية.

وبالإضافة إلى صعوبة اتخاذها لمواقف قوية على الصعيد القاري أو العالمي والاكتفاء أكثر من مرة بالاختباء وراء قرارات الأمم المتحدة، فقد أبانت منظمة الوحدة الإفريقية عن محدودية تأثير قراراتها في حل نزاعات أعضائها؛ وهو ما جعل أغلبهم يلجأ إلى محكمة العدل الدولية.

وتكاد المادة الـ 3 من ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية تصور حالة الاحتقان وعدم الاستقرار السياسي طيلة سنوات الستينيات والسبعينيات، عندما تتحدث عن استنكارها لأعمال الاغتيال السياسي أو التحريض عليها؛ وما يدعو إلى الاستغراب هو أن هؤلاء القادة الانقلابيين والحكام أنفسهم دكتاتوريون لا يترددون في الإعلان خلال توصيات أكثر من قمة إفريقية عن رفضهم لأسلوب الانقلاب والوصول إلى السلطة بالقوة بعيدا عن المسالك الديمقراطية.

وستزداد حدة الهاجس مع انهيار جدار برلين وما رافقه من نهاية للشائبة القطبية وانتشار ثقافة حقوق الإنسان وبروز خطابات حماية المرأة والطفل في المواثيق الدولية والحث على تحقيق التنمية المستدامة... في ظل هذا التحول النوعي في الفكر الاجتماعي والسياسي في العالم، سيضطر قادة المنظمة الإفريقية للتأقلم مع الأجواء الجديدة، وسيترجم ذلك من جهة بتبني بعض أدوات العمل الديمقراطي وإفراغها من محتواها، مثل تنظيم الانتخابات بحضور مراقبين دوليين ومنظمات حقوقية لا تحترم نتائجها في أغلب الأحيان ولا تؤدي إلى انتقالات حقيقية لهذه الدول نحو الديمقراطية. ومن جهة أخرى، سيعمل القائمون على المنظمة بتغيير جلد المنظمة لتتنقل من "منظمة

6 - انظر: نص ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية (أديس أبابا، محرم 1383هـ الموافق مايو 1963م)، المادة الثالثة التي جاء فيها: "تحقيقا للأهداف المبينة في المادة الثانية، يؤكد أعضاء المنظمة ويعلنون ارتباطهم بالمبادئ الآتية: 5 - الاستنكار المطلق لأعمال الاغتيال السياسي في جميع صوره، وكذلك ألوان النشاط الهدام، التي تقوم بها الدول المجاورة، أو أي دول أخرى...".

الوحدة الإفريقية" إلى "الاتحاد الإفريقي" بترسانة قانونية جديدة وهيكلية إدارية جديدة، لكن بالعقلية نفسها وبالتكتيك القديم نفسه! قد يبدو من وحي الخيال، ولكن الميثاق الجديد للاتحاد الإفريقي ينص في فصله الـ 30 عن توقيف عضوية كل دولة تستعمل طرقا غير ديمقراطية للوصول إلى السلطة، وهو المضمون نفسه للفصل الـ 3 من ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية. ولا داعي إلى طرح السؤال حول عدد الدول التي تلتزم بالاختيار الديمقراطي في ممارستها السياسية.

أكثر من هذا، نجد أن القرار رقم 16 الشهير بمبدأ "قدسية الحدود الموروثة عن الاستعمار" والذي جاءت به قمة القاهرة في يوليو 1964م، مع الإشارة إلى ما أثاره هذا القرار من جدل قانوني وفقهي وواقعي، استمر لسنوات طويلة، ونوقش في أكثر من مؤسسة مختصة، خاصة أنه إلى غاية صدور قرار 16 كانت جل الدول الإفريقية لم تكمل بعد تحديد مجالها الجغرافي، وما زالت تقاوم من أجل نيل الاستقلال أو تصفية الاستعمار؛ وهو ما جعل كل من الصومال والمغرب تتحفظان على قرار "قدسية الحدود الموروثة عن الاستعمار"، نظرا لأن المغرب آنذاك كان في مسلسل استرجاع مناطق سيدي إفني وباقي أجزاء الأقاليم الجنوبية من المستعمر الإسباني، أما الصومال فكانت في صراع مع إثيوبيا حول منطقة الأوجادين.

يتمثل الهدف من إثارة هاتين النقطتين بالتحديد في إبراز كيف أن ما كان قرارا في عهد "منظمة الوحدة الإفريقية" سيصبح نصا قانونيا مرجعيا في ميثاق الاتحاد الإفريقي الجديد في الفقرة "ب" من الفصل الرابع، التي نصت على "احترام الحدود عند نيل الاستقلال". ويبدو أن مهندسي ميثاق الاتحاد الإفريقي كانوا يجيبون عن انتظارات الجيل الجديد من الشعوب الإفريقية التواقعة إلى العيش الكريم والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان من جهة، ومن جهة ثانية حاولوا تدارك الخطأ القانوني والتاريخي الجسيم الناجم عن انضمام "البوليساريو" إلى المنظمة الإفريقية سنة 1984م، بالرغم من عدم توفره على الشروط القانونية المتعارف عليها دوليا؛ وهو ما يبرر عدم اعتراف كل من الأمم المتحدة والجامعة العربية بالبوليساريو...

فبالعودة إلى مضمون المادة الرابعة من ميثاق "منظمة الاتحاد الإفريقي" نجد أن عضوية المنظمة تكون لكل دولة إفريقية مستقلة، ذات سيادة إلا أن ميثاق الاتحاد الجديد سيعالج الأمر بمناورة مكشوفة في فصله الـ 29 الخاص بقبول العضوية وقال بأنه "يجوز لأية دولة إفريقية أن تخطر رئيس اللجنة بنيتها في الانضمام إلى هذا القانون..."، وهي بهذا تسقط شرطي الاستقلال والسيادة

الواردين في المادة الرابعة وبالتالي يمكنهم القفز على قانونية عضوية البوليساريو في الاتحاد الإفريقي وطي النقاش من باب تحصيل الحاصل! وفي الاتجاه نفسه، ولأنهم أخرجوا فرضية رجوع المغرب في يوم من الأيام إلى البيت الإفريقي، فقد أسقطوا بدون قصد شروط وقيود طلب العضوية في المنظمة، وجعلوا العضوية تقتصر فقط على شرط الانتماء الإفريقي (الفصل 29) وهو ما استفادت منه دولة جنوب السودان بانضمامها سنة 2011م.

في هذا السياق الذي امتد لأزيد من عشرين سنة، جاءت الرسالة الملكية الموجهة إلى قمة كيغالي (رواندا) في يوليوز 2016م، فأربكت جميع حسابات أعداء انتماء المغرب إلى الاتحاد، ثم تلاها طلب الانضمام الرسمي في سبتمبر 2016م ليعمق جراح "الحرس القديم" المتحكم في دواليب الاتحاد الإفريقي، خاصة أن الرحلات الملكية المليئة بالأمل والتنمية والتعاون جنوب - جنوب بمنطق "رابح - رابح" أسهمت في تقريب الصورة الحقيقية للملك محمد السادس من الشعوب والقادة الأفارقة؛ وهو ما جعل أمر عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي مسألة وقت فقط، لكونه عضوا مؤسسا ولتوفره على نصاب الأغلبية العددية الذي يجعله عضوا فاعلا في المنظمة، استنادا إلى الفصل الـ 29 الذي تقول فقرته الثانية بعنصر الاستعجال في الرد على طلب العضوية بتنصيبها على أنه "... وتتم عملية القبول بأغلبية بسيطة للدول الأعضاء، ويحال قرار كل دولة عضو إلى رئيس اللجنة الذي يقوم بدوره، عند استلام العدد المطلوب من الأصوات، بإبلاغ الدولة المعنية بالقرار".

وهنا، وقع مهندسو ميثاق الاتحاد الذين بدأوا في التحرك لخلق عوائق "قانونية" أمام انضمام المملكة في شر تخطيطهم، لأن الفصل الـ 29 من خلال عبارة "عند استلام العدد المطلوب من الأصوات..." يؤكد أن العضوية تصبح سارية المفعول بمجرد الحصول على أغلبية بسيطة ودون انتظار استلام كل قرارات 54 عضو في المنظمة؛ وهي الأغلبية التي يملكها أصلا المغرب، نظرا لتأييد أغلبية أعضاء الاتحاد الإفريقي بعودته إلى البيت الإفريقي. من جديد، ستربك مكاملة جلاله الملك محمد السادس حسابات "الحرس القديم"، وستبعثر أوراق الخصوم بسؤاله لرئيس منظمة الاتحاد عن سبب التأخير ومآل الطلب، بما أن طلب المملكة يستجيب إلى شروط العضوية وعرف الانضمام وكذا توفر النصاب العددي، وبالتالي فلا مبرر للتأخر في إبلاغه بالقرار.

وبعيدا عن كلام الكواليس الذي لا يخلو من "بالونات التجارب" حول معيقات انضمام المغرب، فإن ميثاق الاتحاد نفسه يتضمن الحل، سواء في الفصل الـ 26 المتعلق بالتفسير الذي يشير إلى "تنظر المحكمة في المسائل المتعلقة بتفسير هذا القانون والتي تبرز عند تطبيقه أو تنفيذه وريثما يتم

إنشاء المحكمة، فإن مثل هذه المسائل تحال إلى مؤتمر الاتحاد الذي يبت فيها بأغلبية الثلثين"، بمعنى أنه في حالة تعذر تفسير الفصل الـ 26 من لدن رئيس اللجنة يحال على مؤتمر الاتحاد، حيث يتوفر المغرب على النصاب العددي كذلك، ويمكن الاستعانة أيضا بالفصل الـ 9 المتعلق بسلطات ومهام المؤتمر في الفقرة "ج" التي جاء فيها: "... بحث طلبات الانضمام إلى عضوية الاتحاد..." وهذا ما أكدته خطاب المسيرة لسنة 2016م من دكاكر عند قول جلالته إن عودة المغرب هي مسألة وقت فقط...

أما الحقيقة المغيبة هي ترتيب أوراق هياكل الاتحاد الإفريقي ومفوضياته الثماني قبل انضمام المغرب؛ فالسيدة دلاميني زوما، رئيسة المفوضية (اللجنة)، وهي التي تشهر في موقف غير حيادي لنصرتها للطرح الانفصالي، ستغادر المنصب القاري بعد أربع سنوات، ومنتظرها منصب رئيسة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي الحاكم في جنوب إفريقيا، حيث تقلدت أكثر من حقيبة وزارية بين الصحة والداخلية والخارجية، أضف إلى كونها زوجة رئيس جنوب إفريقيا.

وبما أن المنصب ما زال شاغرا حيث كان مقررا أن يبت فيه في قمة كيغالي، قبل أن تترك الرسالة الملكية كل الحسابات، بالرغم من أن لجنة الترشيحات والانتخابات قد حصرت المرشحين في أبريل 2016م بين 3 مرشحات لخلافة السيدة زوما، وهن وزيرة خارجية بوتسوانا، ووزيرة خارجية غينيا الاستوائية، ونائبة الرئيس الأوغندي؛ فإن عودة المغرب الآن تعني تنصيب موظفين مغاربة في هياكل الاتحاد وفي مواقع القرار وفي المفوضيات وغيرها، وهو ما لا ترغب فيه الجزائر وجنوب إفريقيا ولا "دميتهم" البوليساريو!...

ومن ثم، جرى تأجيل أمر البت في خلافة السيدة دلاميني زوما على رئاسة المفوضية الإفريقية إلى يناير 2017م، بعد أن تتضح الرؤية أكثر؛ لكن ليس هناك مانع قانوني يحول دون انضمام المغرب سوى الرغبة في إبعاده مؤقتا في انتظار ملء كراسي هياكل الاتحاد بشخصيات بمقاسات معينة ومواصفات محددة.

وباعتبار منظمة الاتحاد الإفريقي، حسب الفصل الـ 53 من ميثاق الأمم المتحدة، منظمة جهوية أو إقليمية معترف بها، ما يجعلها ممثلة في بعثة الأمم المتحدة المينورسو. وهنا، يمكننا استحضار كل التكهانات في نوعية التمثيلية وكذا تقارير ممثلي الاتحاد بالمينورسو!!!...

لقد بعثت رحلات ومشاريع التنمية والأمل لجلالة الملك نصره الله في إفريقيا ورسالة كيغالي وأيضا الطلب الرسمي للانضمام أوراق مناصري أطروحة الانفصاليين... وما دام "الحرس القديم" يتكلم عن ضرورة احترام مساطر الانضمام، فإننا نطلب منهم فك لغز تضمنه الفصل الـ 23 من ميثاق الاتحاد الإفريقي والمتعلق بـ "فرض العقوبات على كل عضو تخلف عن تسديد مساهماته في ميزانية الاتحاد..."، السؤال هو: إذا كانت البوليساريو تعيش على إعانات وهبات المجتمع الدولي، فهل لديها القدرة على سداد نصيبها كعضو داخل الاتحاد؟ وإذا لم تكن تسدد واجبات العضوية، فلماذا لم تفرض عليها العقوبات الواردة في الفصل الـ 23 ما دام الفصل الرابع ينص في فقرته الأولى على مبدأ المساواة بين الدول الأعضاء داخل الاتحاد؟ وهنا أيضا هل أخطأ مهندسو ميثاق الاتحاد الإفريقي أم أن قدر الشعب الجزائري أن يسدد من عرقه ثمن وجود كيان البوليساريو؟

ملاحم من مسار العلاقات المغربية الإفريقية عبر التاريخ

د. نور الدين بلحداد

معهد الدراسات الإفريقية - الرباط

قبل الخوض في بعض ملاحم هذه العلاقات التي ظلت تجمع المملكة المغربية بالعديد من دول القارة الإفريقية، أستسمح القارئ الكريم بطرح سؤال جوهري في الموضوع، فإذا كان الجميع قد شاهد بأم عينه عبر العديد من وسائل الاتصال والقنوات السمعية البصرية العودة المغربية للحضن الإفريقي أثناء انعقاد الدورة الثامنة والعشرين لمجلس الاتحاد الإفريقي بالعاصمة الإثيوبية أديس أبابا، واستمع الجميع للخطاب التاريخي الذي ألقاه جلالة الملك معلنا فيه عن انتهاء زمن المقاطعة الذي دام أكثر من ثلاثة عقود وحلول ساعة الحقيقة لعودة المغرب لمكانه الطبيعي للمساهمة مع باقي الدول في بناء صرح القارة الإفريقية وإسعاد سكانها لتحقيق مشاريع تنمية اجتماعية.

والسؤال هو هل يعرف شباب مغرب اليوم، وإخوانهم الأفارقة، وحتى من الدول الأجنبية تاريخ هذه العلاقات التي كانت تجمع المغرب مع العديد من الدول الإفريقية على امتداد عدة قرون خلت؟

الأكيد أن نجاح السياسة الحالية التي نجني ثمارها من خلال المجهودات الجبارة المتتالية التي ما فتى يقوم بها صاحب الجلالة الملك محمد السادس في ترسيخ وتطوير هذه العلاقات مع العديد من إخوانه قادة وزعماء القارة الإفريقية لها جذور راسخة وأقدام ثابتة تركها العديد من الملوك الذين تدولوا على حكم المغرب، بالإضافة إلى تلك الأدوار الهامة التي قام بها العديد من الرحالة والمستكشفين المغاربة وأصحاب القوافل التجارية ورجال الدين وطلاب العلم، حيث كانت

مسالك الصحراء المغربية وطرقها تعج بحركة نشيطة اقتصادية واجتماعية ودينية وسياسية للربط بين أسواق المغرب في الشمال ومراكز التجارة في غرب القارة الإفريقية.

لذا وجب علينا إحياء رسوم هذه العلاقات وتوعية شبابنا المعاصر بها للدفاع عنها وبث روح الاستمرارية في نفوسهم لخلق وحدة إفريقية متجانسة لشعوبها مفتخرة بتاريخها معتزة بنضال ملوكها وزعمائها في الدفاع عن الوحدة الترابية لكل دولة ومواجهة أطماع المستعمر الأجنبي الذي حاول بكل الوسائل تمزيق هذه الوحدة وخلق كيانات سياسية وهمية خدمة لأغراضه الاستعمارية.

فبالعودة إلى التاريخ تحدثنا الوثائق والمصادر العلمية على أن الأدارسة بعد قيام دولتهم اهتموا بربط علاقات ثقافية انطلاقا من جامعة القرويين، ثم ربطوا علاقات اقتصادية مع دول جنوب الصحراء خاصة مع غانا عبر مدينة تامدولت، وأضحت علاقة القرويين بفاس قبلة للعديد من طلاب العلم من كل أنحاء القارة الإفريقية لأخذ العلم عن مشايخها وفقهاءها وعلماءها.

ولقد توطدت العلاقات والتحمت الأواصر بين أبناء إفريقيا وإخوانهم المغاربة مع بداية الدولة المرابطية ذات الأصول الصحراوية، وبرزت إلى الوجود مدينة نول لمطة التي ساهمت في توطيد العلاقات التجارية بين المغرب وإفريقيا، وبرزت إلى الوجود مدينة تنبوكتو وذاع صيتها في الميدان الاقتصادي وأصبحت محجا للعديد من أصحاب القوافل التجارية وتعددت بها جنسيات العديد من التجار القادمين من شمال القارة الإفريقية، وكان للمغاربة حصة الأسد، إذ استقبلت هذه المدينة العديد من التجار والعلماء والفقهاء حتى قيل في حقها إنها أصبحت مأوى للعلماء ومثوى للصالحاء والأولياء، ولعب المغاربة أدوارا طلائعية في نشر مبادئ الدين الإسلامي القائمة على التضامن والتآخي والسلام والمسالمة.

وفي الميدان الثقافي لعبت مدينة تنبوكتو دورا هاما في تثقيف أبناء الأفارقة وتعليمهم خاصة وأنها كانت تتوفر على العديد من الكتب والمخطوطات والتي كانت تباع بأسواقها التي تم جلبها من المغرب خاصة من فاس ومراكش.

حافظ كذلك ملوك الدولة الموحدية التي حكمت المغرب على علاقاتهم مع إفريقيا خاصة مع ملوك إمبراطورية غانا التي خلفت إمبراطورية مالي، وتبادل الطرفان السفارات للبحث عن سبل توطيد هذه العلاقات والدفع بها نحو التقدم والازدهار. ويمكن العودة إلى كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الذي ألفه الرحالة المغربي ابن بطوطة، وقد ذكر في رحلته هذه

تفاصيل زيارته للعديد من مناطق القارة الإفريقية والتي دامت حوالي 20 شهرا بين سنتي 1352م و1353م وقد وثق فيه مشاهداته عن عادات وتقاليد السكان وأعطى وصفا دقيقا للمسالك والطرق التجارية وقد اعتمدت أوروبا كثيرا على المعلومات التي أوردها ابن بطوطة في كتابه عن رحلته لإفريقيا واستفاد منها العديد من الرحالة والمستكشفين الأجانب، وفي هذا الصدد يقول الكاتب الإنجليزي بوفيل Bovill : «لقد تعرفنا على القارة الإفريقية بفضل ما خلفه لنا العديد من الرحالة العرب ومن بينهم المغاربة كابن بطوطة وابن خلدون».

ويشير ابن خلدون بدوره إلى ازدهار العلاقات الثقافية والسياسية بين مدينة فاس وإمبراطورية مالي خلال القرنين 14م و 15م وعرفت تبادل السفارات بين الملوك المرينيين وحكام مالي الحاملين للقب المانسا، إذ كانت أول سفارة يبعثها المنسي موسى للمغرب سنة 1337م ورد عليها السلطان المغربي أبو الحسن المريني بسفارة لمالي سنة 1337م/ 1338م. ثم كانت سفارة أخرى يبعثها المنسي سليمان للسلطان المريني أبو عنان وتحديثا كتب التاريخ والرحلات عن ذلك الحزن الشديد الذي عم سكان مدينة نيامي المالية بعد تلقيهم خبر وفاة السلطان المغربي، حيث أقيمت له جنازة بمسجدها حضرها الحكام والعلماء والوزراء لمكانة هذا السلطان في نفوس سكان إمبراطورية مالي.

حافظت الدولة المغربية على علاقتها السياسية والاقتصادية مع ظهور إمبراطورية سنغاي وظلت مدينة فاس ملجأ للعلماء وطلاب العلم من كل أنحاء البلاد الإفريقية، واستقبلت مدن هذه الإمبراطورية العديد من المغاربة سواء من التجار أو من العلماء أو الفقهاء الذين فضلوا الاستقرار بها نذكر من بينهم الفقيه عبد الله البليلي الذي تم استقطابه من مدينة فاس ليشغل منصب إمام وخطيب مسجد سانكوري.

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن كلا الحاكمين سواء في المغرب أو في بلاد السودان الغربي أولوا عناية كبيرة للمسالك والطرق التجارية التي كانت تعبرها القوافل المحملة بالسلع والبضائع التجارية سواء المجلوبة من أسواق المغرب أو من المدن التجارية بإفريقيا الغربية، وأرسوا فيها الأمن والسلامة لأصحاب القوافل التجارية، وشيدوا بها مواقف الاستراحة المعروفة «بالنزالات» ووفروا المياه العذبة للإنسان والدواب من خلال العناية بالآبار وعيون الماء المنتشرة عبر هذه المسالك.

وعلى الرغم من توتر العلاقات مع السودان الغربي في عهد الدولة السعدية بسبب حقوق استغلال مملحة تغازى فقد ظلت العلاقات الأخوية والمبادلات الاقتصادية جارية على قدم وساق بين أسواق المغرب وعدة مدن كتنبوكتو وجيني وكاو، بل ستتطور هذه العلاقات بعد ظهور خطر

المد التوسعي الإيبيري في سواحل المحيط الأطلسي، واحتلال بعض المناطق، وبناء وكالات تجارية تمكنهم من الوصول مباشرة إلى أسواق إفريقيا الغربية وضرب تلك الوساطة التجارية التي ظل المغرب يحتكرها لعدة قرون والتي كانت منها بعض الدول الأوروبية الطامعة في الوصول إلى هذه الأسواق واحتكار تجارتها وفرض هيمنتها الاستعمارية عليها.

ويمكن أن نذكر أنه في سنة 1582م وصل سفير من مملكة بورنو إلى المغرب واستقبله السلطان أحمد المنصور الذهبي في منطقة رأس الماء بالقرب من مدينة فاس، وتبادل معه الحديث حول ظهور الخطر الإيبيري بالسواحل الإفريقية، وطلب المساعدة بالمال والسلاح والمدافع لمواجهة هذا الخطر، فلبى سلطان المغرب الطلب. بل سنراه يشد من عضد مملكة بورنو في مواجهتها مع الأتراك الذين حاولوا بكل الوسائل إخضاعها لحكمهم لتضييق الخناق على المغرب ومحاصرته من الجنوب. وسنجد في مناسبة أخرى هؤلاء الأتراك يقدمون شكوى لملك فرنسا لويس الرابع عشر سنة 1692م، والذي كانت تجمعته علاقة متينة بالسلطان المغربي المولى إسماعيل يتهمون فيه المغرب بالسعي لطردهم من الجزائر ومن تونس، بل سوف نجد أحد سفرائهم المدعو إسماعيل أفندي الذي أرسله الأتراك في مهمة رسمية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله في سنة 1787م، لتلطيف الأجواء بين الدولتين دون بعض المعلومات في تقرير رسمي أثناء إقامته بالمغرب حيث قال:

« حضرت مع السلطان صلاة الجمعة في مسجد السنة، وتأكد لي بأنه مستعد لتقديم كل ما في خزانته من مال لنصرة القضية الإسلامية التي يجتمع حولها العرب والأفارقة، وأثناء كلامي معه فهمت أن سلطان المغرب يعاتب الباب العالي على ضعفه أمام الظلم والغبن الذي يعاني منه العرب والشرفاء في ولاية الجزائر... وأثناء إقامتي معه ورد عليه أعراب من الجزائر يشكون له ما يلاقونه من ظلم وتعنت، هذا بالإضافة إلى الاحترام والتقدير الذي يحظى بهما هذا السلطان في العديد من أقطار إفريقيا، الشيء الذي يمكن أن يعجل بانتهاء أيامنا في تونس وطرابلس إذا لم نأخذ بزمام الأمر ونواجهه»

لقد ذاع صيت السلطان سيدي محمد بن عبد الله بسبب حنكته السياسية وتبصره وتشعب علاقته الدبلوماسية الودية ووساطته في إصلاح ذات البين، وأدرك رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية هذه الخصال الحميدة فطلبوا من السلطان سيدي محمد التدخل لتحقيق السلم بينهما وبين ولاية طرابلس وتونس، وهذا ما تضمنته الرسالة التي أرسلها له الرئيس الأمريكي جورج واشنطن بتاريخ 23 يونيو 1787م.

ومن الوساطة في الصلح بين القبائل الإفريقية نذكر هنا تدخل السلطان مولاي سليمان لفض الحرب التي اندلعت في بلاد التكرور بين الفلانيين وخصومهم، وذلك حسب شهادة محمد بل ابن فودي في كتابه الشهير إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، وبالإضافة إلى ذلك نجد في هذا المصدر التاريخي كثيرا من المعلومات الغميسة التي كانت تربط بين سلطان المغرب والشيخ عثمان بن فودي الفولاني سنة 1810.

ولقد كان للوجود المغربي والحضور المكثف لأفراد الجالية المغربية في بلاد السودان الغربي دورا هاما في توطيد دعائم الاتصال والتواصل حيث توطدت علاقة الطرفين، وأصبح التأثير والتأثر جليا على المجتمعات الإفريقية التي اقتبست أشياء عديدة في حياتها اليومية من المغاربة المقيمين بينهم، كما تأثر المجتمع المغربي أثناء إقامة العديد من أبناء إفريقيا من طلاب العلم سواء بفاس أو مراكش أو سوس، ولم تختل موازين هذه العلاقات إلا مع بداية التسرب الاستعماري خاصة من قبل الفرنسيين الذين احتلوا السودان الغربي خلال القرن التاسع عشر، الذي جند كل إمكانياته ووسائله للقضاء على هذا الوجود المغربي الذي كان واضحا على حياة المجتمعات الإفريقية سياسيا ودينيا واقتصاديا واجتماعيا، لكنه فشل في دعوته بسبب تمسك أبناء السودان الغربي بتعاليم الدين الإسلامي وبمبادئ المذهب المالكي التي أرسى المغرب قواعدها بإفريقيا منذ عدة قرون خلت، ويكفي أن نستحضر نفوذ الزاوية التيجانية ببلاد السنغال والأدوار التي قامت بها لترسيخ هذه المبادئ في نفوس أتباع الزاوية التيجانية، الذين عملوا على توطيد العلاقات مع المغرب، والتي ما زالت قائمة إلى يومنا هذا وتجسدها تلك اللقاءات الموسمية التي تعرفها مدينة فاس كل سنة حيث يفد عليها مئات الآلاف من مختلف الدول الإفريقية من مريدي الطريقة التيجانية لزيارة ضريح مؤسس الطريقة الشيخ سيدي أحمد التيجاني.

وبعد انقشاع مرحلة الحماية التي فرضت على المغرب، أعاد الملك محمد الخامس ترتيب مكونات البيت المغربي الإفريقي، ودعم بالمال والسلاح حركات التحرر في القارة الإفريقية التواقية للحرية والاستقلال، ونهج وارث سره جلالة الملك الحسن الثاني نفس النهج في دعم الدول الإفريقية الطامحة لكسر قيود الاستعمار والاستعباد، كما دعم مجموعة من الدول وساعدها على إنهاء الحرب الأهلية التي اندلعت فيها.

واليوم رأى العالم كله ما يقوم به ملك المغرب محمد السادس من جليل الأعمال لتحقيق نهضة تنموية لأبناء القارة الإفريقية، وشده من عضد زعماء وحكام القارة الإفريقية في حربهم ضد

الإرهاب، كل ذلك في إطار سياسة جديدة قوامها رابع - رابع، وتعبيد الطريق لأبناء القارة الإفريقية لاستخلاص الدروس والعبر من هذه النهضة التنموية التي يباشرها ملك المغرب، ونسيان الأحقاد والتمسك بقيم التعاون والتضامن وتوحيد السياسات في ظل التحديات السياسية الراهنة والتي عصفت بالعديد من الدول وأصبحت مجتمعاتها عرضة للتناحر والحروب الأهلية التي أتت على الأخضر واليابس.

وفي ختام هذا الموضوع لابد من التذكير بأن كل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نسجها ملوك المغرب على مدى عدة قرون مع الدول الإفريقية كانت تتم عبر مسالك الصحراء المغربية، سواء الشرقية منها أو الساحلية، وهذا دليل على حضور المغاربة في صحرائهم منذ زمن بعيد وارتباط سكانها بالسلطان المغربي، والتزامهم بروابط البيعة والولاء لشخصه واستعدادهم الدائم للدفاع عن هويتهم الإسلامية ووحدتهم الترابية.

لذا وجب علينا تذكير شبابنا بهذه التضحيات التي ساهم بها أبناء وشباب الصحراء المغربية في ملحمة النضال والوفاء من أجل الكرامة والحرية، ولا نقبل المزايدة على حقوقنا القانونية وعلاقاتنا التاريخية مع أبناء صحرائنا الأطلسية، ولا على علاقتنا المتينة مع إخواننا الأفارقة، وكيفينا هذه المحطات التاريخ التي سمحت لنا بفهم الروابط التاريخية بين المغرب وإفريقيا، وبفهم عوامل العودة من جديد إلى بيتنا الإفريقي للمساهمة مع إخواننا الأفارقة في بناء غد مشرق للأجيال القادمة وإحياء أواصر وروابط الأخوة الصادقة مع شعوب قارتنا الإفريقية والتي بدأها الشرفاء الأدارسة من فاس ويقودها اليوم سليل البيت الشريف مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس.

- المصادر والمراجع المعتمدة في تحرير الموضوع:

- محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة، مطبعة فضالة 1987م.
- هاشم العلوي القاسمي، أصول الروابط التاريخية بين بلاد المغرب وغرب إفريقيا في العصور الوسطى، فاس، 1989م.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت دار صادر لبنان 1977.
- محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب الرباط 1989.

- مجلة دعوة الحق عدد خاص بإفريقيا القارة الإسلامية ماضيا وحاضرا ومستقبلا أبريل ماي 1988.
- خالد صابر شريف، دور مدينة فاس في نشر الطريقة التيجانية في إفريقيا جنوب الصحراء، ضمن ندوة فاس وإفريقيا، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 1993.
- محمد بل فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، 1996.
- محمد بن الحاج كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق هوداس ودولافوس، باريس 1913.
- ابن بطوطة، تحفة النظار في عجائب الأمصار، تحقيق المنتصر الكتاني، بيروت 1975.

ملف الصحراء المغربية في ردهات الاتحاد الإفريقي بين تركة إخفاقات تدبير النزاع ورهانات التحدي المغربي

بقلم: دة. ماجدة كريمي
رئيسة مركز الدراسات
"الصحراء المغربية: التنمية الجهوية
والامتداد الإفريقي"

إن الحديث عن تدبير النزاع حول الصحراء داخل الاتحاد الإفريقي يأتي في سياق نقاش كبير وحاد ساهمت في إثرائه ولا تزال، مختلف الفعاليات المؤهلة لذلك سواء المغربية منها أو الإفريقية أو الدولية. نقاش ازداد صخباً بعد القرار الجريء الشجاع والقرار الرصين الحكيم الذي أقدم عليه المغرب بخصوص التحاقه من جديد بهذه المؤسسة الإفريقية، نقاش يدور لمرحلة مفصلية وهامة يعرفها ملف الصحراء المغربية، أقول مفصلي، لأنها تروم وضع المجتمع الدولي - انطلاقاً من أن أكبر مؤسسة إفريقية - على بينة من آليات التدبير المغربي لهذا الملف، ذلك أن المغرب - اليوم أكثر من أي وقت مضى - هو بحاجة إلى أن يدافع عنه بنفسه داخل هذه المؤسسة و أن يطرح جميع المستجدات لتجاوز احتكار الرؤية التي هيمنت سابقاً داخل منظمة الوحدة الإفريقية وكذا الاتحاد الإفريقي نسختها الثانية. وكذلك لتمكين هذه المؤسسة من الاضطلاع بدور بناء والإسهام إيجابياً في جهود الأمم المتحدة من أجل حل نهائي للنزاع الإقليمي حول الصحراء المغربية.

إذن في ضوء هذه المعطيات وفي ضوء مطالبة أغلب الدول الإفريقية بعودة المغرب إلى هذه المؤسسة، لا يمكننا إلا أن نسجل أنه إذا كانت ظرفية عودته تحفز تطلعات ومتمنيات الأصدقاء فهي تثير تشويش وعرقلة الأعداء.

وعليه وفي خضم تدافع الانتظارات وتناسل التصورات، يصبح التحليل العلمي الأكاديمي مدعوا ليكون أساس التفكير في هذا الموضوع، هذا ويصبح صوت المؤرخ مطلوباً بامتياز، فهو

الباحث المعروف برجاحة تحليل يستحضر فيه الماضي لفهم الحاضر واستشراف المستقبل معتمدا على أمهات الكتب والوثائق الدفينة منها والقريبة.

وتحضرني هنا أسئلة مهمة هي كالاتي: على أية مشروعية تركز المقاربة التاريخية في هذا الموضوع؟ وعلى أي أساس وثائقي تركز لإنتاج تحليل تاريخي منطقي؟ وهل المؤرخ في بحثه عن "الحقيقة" مستعد لهذه المهمة؟! كيف يمكنه وضع مسافة بينه وبين وطنيته لتحقيق الحياد والموضوعية العلمية المطلوبة في الكتابة التاريخية وحتى لا يكون متواطئا في التلاعب بالتاريخ؟¹ وكيف تتم عملية التحري عن "الحقيقة التاريخية" وإعادة إنتاج خطاب تاريخي وفق مستجدات التقصي العلمي؟

المعالجة التاريخية لتدبير ملف الصحراء المغربية إفريقيا: أية منهجية؟

كثر الحديث مؤخرا عن خصوصيات تاريخ الزمن الراهن² وعن مدى حضور الذاكرة فيه "فالذاكرة والتاريخ، على الرغم من أنهما متكاملان في بعض الأحيان، فأنهما مفهومان مختلفان تماما، فالذاكرة هي الحياة في تطورهما المستمر، تتأثر بالذكريات وبالنسيان وهي عرضة لجميع أنواع التلاعب، وعلى عكس ذلك فإن التاريخ هو إعادة بناء ما لم يعد له وجود بالاحتكام إلى النقد والتحليل (...) وهو يعمل على تحليل الوقائع والأسباب والنتائج المترتبة عنها..."³

فهذا الواقع يدفع بالمؤرخ الذي يقارب موضوعا يعود إلى هذا الحقل الزمني إلى تطوير مقاربه وذلك بالابتعاد عن المناهج التقليدية المتجاوزة، وتزداد إلحاحية هذا المطلب فيما يخص ملف الوحدة

1 - «(...) كثيرا ما نستخدم الذاكرة الجماعية بشكل انتقائي من خلال التلاعب بقطع معينة من الماضي وذلك بطمس بعضها وإبراز بعضها الآخر بأسلوب يؤدي وظيفة من نوع ما ... ومن موجب هذا المنحى في استحضار الذاكرة التاريخية أن يؤدي إلى تدني الفكر المعرفي وإكسابه سمة من الرياء والضعف، بل والأخطر من هذا من موجب أن يخفي الحقيقة ولا يفصح عنها وأحيانا يسعى إلى تشويهها»

- كريمي ماجدة، "الحكم الذاتي بأقاليمنا الصحراوية: المراكز التاريخية"، مطبعة فاس بريس 2010م، ص: 1.

2 - لقد اكتسبت كتابة تاريخ الزمن الراهن - على ترادف الأعوام - شرعية مستحقة في مجال البحث وذلك لان تأصيل الوقائع الراهنة ووضعها في سياقها الزمني الممتد أصبح مطلبا اجتماعيا ملحا حمل المؤرخ مسؤولية الإجابة عن السؤال التالي: لم يصلح المؤرخون؟!

- كريمي ماجدة: "التراث الحساني والإقلاعي التنموي بالأقاليم الصحراوية: أبعاد التوظيف" منشورات مركز الدراسات والأبحاث "الصحراء المغربية: التنمية الجهوية والامتداد الإفريقي" مطبعة الكتاب فاس 2014م، ص: 203.

3 - أنجيلا هيرنانديث مورينو، "قضية الصحراء بين الذاكرة والتاريخ"، مقال بأعمال ندوة الداخلة: "التراث الصحراوي: التاريخ والذاكرة"، مطبوعات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، الدار البيضاء 2015م، ص: 13.

التراية فهو موضوع يتميز بحركيته وآنيته، ومن ثم لا يمكن أن يناقش إلا بمنهج ينتقل في الزمن المفتوح (الماضي / الحاضر / المستقبل)، وبمقاربة سياقية أي في سياق عام يستحضر العمق الإفريقي للمغرب، وهو عمق لا يعود إلى الأمس القريب، بل هو موغل في القدم بدءا من العصر القديم⁴ ليتوطد خلال العصر الوسيط⁵، وكذا العصر الحديث والراهن⁶. فأمام متانة هذه العلاقة وامتدادها على قرون عدة لم يستطع الاستعمار الأوروبي الذي عانت منه القارة الإفريقية خاصة في ق 19م القضاء على ديناميتها التي طالت القطاع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والروحي... رغم عمق الخلخلة التي أحدثها بوضعه الحدود بين الدول.

وبالتالي فاستحضار هذا الإرث التاريخي ضروري لإدراك المكانة الرفيعة التي ما انفكت المملكة المغربية الشريفة تحتلها داخل القارة الإفريقية، وهو ضروري كذلك لفهم التشويش الذي طال عدالة قضيتها الوطنية الأولى من طرف منافسيها على ريادة إفريقية مستحقة.

فانطلاقا مما سبق ذكره تنقسم مقالتني إلى ثلاثة محاور كبرى :

المحور الأول: يحاول إعادة بناء ذاكرة منظمة الوحدة الإفريقية بخصوص النزاع حول الصحراء باعتماد توثيق تاريخي يعود بنا إلى ستينات القرن الماضي⁷، لنقف على أخطائها في معالجة هذا الملف مما أدى بالمغرب إلى تجميد عضويته بها، كما سنرصده استمرار إخفاقات هذا التدبير بالاتحاد الإفريقي إلى حدود هذا الحين.

4 - انصرفت الأركيولوجيا والأبحاث المرتبطة بها إلى إثبات قدم العلاقات بين المغرب القديم والدول الإفريقية.

- شارل أندري جوليان، "تاريخ إفريقيا الشمالية"، تعريب بن سلامة البشير ومزالي محمد، الدار التونسية للنشر 1969م.

5 - انظر:

كريمي ماجدة، "العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني (668 هـ - 759 هـ / 1269م - 1358م) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب، تخصص تاريخ، جامعة محمد الخامس الرباط 1988-1989.

كريمي ماجدة، "آثار التجارة الصحراوية على المغرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا من ق 5هـ إلى ق 8هـ/من ق 11 إلى ق 14م"، دكتوراه الدولة في الآداب تخصص تاريخ، كلية الآداب وجدة 1994-1995.

6 - أحمد التوفيق، "العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية من خلال كتابتي الفتاش وتاريخ السودان" منشورات كلية الآداب الرباط 1992م، ص: 9-12.

- حجي محمد، «العلاقات الثقافية بين المغرب وإفريقيا الغربية خلال ق 18م»، منشورات كلية الآداب الرباط 1992، صص: 23-29. (يقدم إشارات عن العلاقات السياسية)

7 - المطلوب في الكتابة التاريخية أن تكون المدة التي تفصلنا عن الحدث التاريخي تتراوح ما بين 30 و50 سنة، هذا دون أن ننسى - نظرا لحركية القضية الإشكالية المتداولة بالتحليل - ما سجل في الآونة الأخيرة من انفتاح الكتابة في التاريخ الراهن على العديد من العلوم الهامة والضرورية التي تأتي على رأسها العلوم السياسية والقانونية.

المحور الثاني: يرصد تحمس حشد هام من الدول الإفريقية بالاتحاد الإفريقي لعودة المغرب إلى هذه المؤسسة ذلك أن 28 دولة تقدمت بطلب تعليق عضوية الجمهورية الوهمية⁸. هذا وسأقف على التشويش الذي يحاول فاشلا عرقلة العودة الشرعية للمغرب إلى هذه المؤسسة الإفريقية.

المحور الثالث: سأقدم قراءة في مقومات النجاح المغربي في الترافع عن هذا الملف بعد عودته باعتبار أن "علاج الجسم المريض من الداخل يتمتع بشجاعة تكبر من علاجه من الخارج".

لأختتم مقالتي بملاحظات واستنتاجات تؤسس لرؤية استشرافية تستحضر معالجة مغربية الصحراء في ردهات الاتحاد الإفريقي، هذا المنبر الذي قد يكون أحد الأعمدة الهامة في آخر محطة من محطات المعركة الدبلوماسية المغربية المتعلقة بهذا الملف.

- منظمة الوحدة الإفريقية والتدبير الفاشل لملف الصحراء المغربية: استنطاق التاريخ

إذا كانت فترة الستينات فترة حاسمة في تاريخ المغرب المعاصر⁹، إذ شهد أهم عمليات إرساء النظام الديمقراطي من خلال البناء الدستوري حيث هيكل القطاع الاقتصادي والاجتماعي والدبلوماسي¹⁰، فإنها مرحلة مفصلية بالنسبة للقارة الإفريقية وسنة بداية الإرهاصات الأولى للقومية الإفريقية / الوحدة الإفريقية / الأسرة الإفريقية.

وفي حديث المفكرين عن هذا المشروع السياسي القاري الكبير وفي وقوفهم على المحاولات الإفريقية لخلق أجهزة مؤسساتية للبت في القضايا والمشاكل والنزاعات الإفريقية دفاعا عن سيادة الدول الإفريقية وسلامة أراضيها، لا يمكننا نحن المغاربة إلا أن نسجل بكل فخر واعتزاز مساهمة المغرب في تحقيق ذلك.

8 - لا يعقل القبول بها عضوا في هذه المنطقة القارية وهي لا تنتمي للأمم المتحدة ولا للجامعة العربية ولا لمنظمة التعاون الإسلامي، ولا لأي منظمة أخرى.

9 - للتوسع أكثر انظر:

- العلوي عيسى بابانا، "أبعاد الملك الحسن الثاني" ترجمة عبد الرحيم حزل، دار النشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، 2001م.

- علاوي محمد، "المجتمع والسلطة"، طبعة 1999م.

10 - وضع أول دستور مغربي في 18 نونبر 1962م وتم التركيز فيه على أن الدبلوماسية الإفريقية هي ثابت من ثوابت المغرب بدليل ما ترتب عن ذلك من إحداث "وزارة الشؤون الإفريقية" وكذا "وزارة شؤون موريتانيا وصحراء المغرب" ناهيك عن فتح العديد من القنصليات والسفارات بالقارة الإفريقية (السينغال 1960م) / غينيا ومالي وليبيا (1961م) / ساحل العاج ونيجريا والجزائر (1962م) / إثيوبيا (1965م) / الزاير (1968م).

- ميغيل هيرناندو لارامندي، "السياسة الخارجية للمغرب"، ترجمة بروكي عبد العالي، سلسلة ضفاف، ع: 9، 2005 ط: 1، ص: 98.

فإذا كان المغفور له محمد الخامس قد ساهم في ذلك بعقده مؤتمرا تاريخيا بالدار البيضاء ما بين 3 و7 يناير 1961م، توقع على إثره ميثاق الدار البيضاء الإفريقي، فإن الحسن الثاني، طيب الله ثراه، وظف الأهداف النبيلة لهذا الميثاق ليساهم في وضع الحجر الأساس لتكوين وحدة إفريقية أوسع وأشمل، فكان ذلك في مؤتمر أديس أبابا الذي أفضى إلى ميلاد منظمة الوحدة الإفريقية في ماي 1963م.

إذن في ظل الأهداف الكبرى لهذه المنظمة والتي وضع لها ميثاقا من 33 مادة. تنم عن درجة عالية من الوعي من طرف الحكام الأفارقة لمواجهة كل أشكال المساس بسلامة أراضي الدول الإفريقية والبت من استقلالها، من حقنا طرح سؤال كبير: ماذا عن تركة هذه المنظمة في تسوية النزاع المفتعل حول الصحراء المغربية؟!

بالعودة إلى قائمة مطالب مغرب الستينات إفريقيا يتبين لنا أن مطلب استكمال الوحدة الترابية احتل الأولوية. لقد تبنى الموقف الرسمي المطالب الترابية منذ خطاب محامد الغزلان سنة 1958م وبعد ذلك طرحها على منظمة الوحدة الإفريقية بحكم أن القضية في الأساس تهم بلدا إفريقيا وبحكم أنها أضحت منذ 1961 قضية دولية بعدما عرضها المغرب على أنظار اللجنة الرابعة للجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة نتيجة فشل المفاوضات الثنائية مع إسبانيا. فآنذاك كان من الطبيعي أن تبحث الدبلوماسية المغربية على الدعم لملفها لدى الدول الإفريقية خاصة وأنها التزمت بمبدأ العمل المشترك من أجل محاربة الاستعمار، سواء في ميثاق الدار البيضاء يناير 1961م أو في ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية ماي 1963م وكذا في البيانات الختامية لمختلف المنتقيات والقمم الإفريقية.

إلا أنه وللأسف فشلت المنظمة في تدبير هذا النزاع فكان أن قرر المغرب المراهنة في دبلوماسيته الإفريقية على العلاقات الثنائية¹¹.

لن أدخل في تفاصيل وجزئيات مسار هذا الملف داخل هذه المنظمة لأن الذاكرة الجماعية المغربية تحبل بكل ما يخص الحيف الذي طال المغرب في هذا الشأن، ومع ذلك فلا بد من استحضار بعض الأخطاء، خاصة وأن المغرب مقبل على طرح ملفه من جديد على المستوى الإفريقي وهي كالتالي:

1. ضعف معرفة الدول المنتمية للمنظمة بالحقائق التاريخية والشرعية القانونية التي تؤكد الروابط القوية بين المغرب وصحرائه.

11 - ظل هذا النهج معمولاً به إلى حدود يومنا هذا.

2. عدم الالتزام ببعض مبادئ الميثاق التأسيسي للمنظمة ونعني هنا عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء¹² علما أن الجزائر قامت بذلك إثر معارضتها "اتفاقية مدريد" في 14 نوفمبر 1975م وقد كان الملف على وشك أن يحل بعد قرار محكمة العدل الدولية لاهاي في 16 أكتوبر 1975م بمغربية الصحراء وبعد أن صادق الصحراويون على مقتضيات هذه الاتفاقية باعتبار أن المشكل يتعلق بتصفية استعمار غربي وأوروبي وبالذات إسباني.

3. الجهل بخطورة النتائج المترتبة عن قرار يعتبر خرقا وتناقضا صارخا مع قانون المنظمة وذلك بالانحياز للموقف الذي روجت له الجزائر ألا وهو "حق تقرير المصير عبر استفتاء عام"، الأمر الذي ترتب عنه تقدم الجبهة الوهمية سنة 1980م بطلب انضمامها إلى المنتظم الإفريقي تمت الموافقة عليه سنة 1982م، مع ما يحمله هذا القرار التعسفي من ضرب عرض الحائط الشرعية الدولية الإفريقية والمتمثلة في العناصر المكونة للدولة وهي: الشعب / سلطة سياسية / حدود ترابية، وهي كلها شروط لا تتوفر في الجبهة المزعومة.

وعلى إثر هذا الخرق السافر لقانون المنظمة اتخذ المغرب قراره التاريخي سنة 1984م ألا وهو تجريد عضويته، وكلنا نتذكر مقولة المغفور له الحسن الثاني حينما صرح: "في انتظار أن يتغلب جانب الحكمة والتعقل فإننا نودعكم الآن، إلا أن المغرب إفريقي بانتمائه، وسيبقى كذلك، وسنظل نحن المغاربة جميعا في خدمة إفريقيا وستدركون أن المغرب العضو المؤسس للوحدة الإفريقية لا يمكن أن يعمل على إقبار هذه الوحدة" والمقولة تفصح عن عمق في التفكير وبلاغة في التعبير ورصانة في اتخاذ القرار.

ملف الصحراء المغربية في ردهات الاتحاد الإفريقي: أي جديد؟!

إذا وقفنا على الحيف الذي طال تدبير هذا الملف داخل منظمة الوحدة الإفريقية لا يمكننا إلا أن نقول إن الحيف ظل مستمرا في نسختها الثانية إلى حدود الحدث التاريخي الكبير الذي سجلته سنة 2016م ذلك أن ثمانية وعشرون دولة من الاتحاد الإفريقي (أكثر من نصف الأعضاء) طالبت بتعليق مشاركة البوليساريو في الاتحاد مقابل ترحيب كبير بعودة المغرب. وقد تأكد الأمر أكثر خاصة بعد الزيارات الملكية الأخيرة التي اخترقت العديد من الدول الإفريقية التي لم يسبق للمغرب أن تعامل معها بهذه القوة.

12 - ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية، المادة: 3 (المبادئ) البند: 2.

فعلا فمنذ سنة 2002م وهي سنة الإعلان عن الاتحاد الإفريقي إلى حدود سنة 2016م أي طيلة أربعة عشر سنة، ظلت هذه المؤسسة لا تقدم شيئا إيجابيا في تدبير ملف النزاع حول الصحراء المغربية. ويكفي أن نسجل هنا أن هذه المؤسسة تعتبر في وضعية تعارض مع الشرعية الدولية بتواجد كيان وهمي بها ذلك أن هذا الكيان لا يعتبر عضوا في أية هيئة سواء كانت إقليمية أو شبه إقليمية أو دولية.

فاستدراكا لهذا الحيف الذي استمر بالاتحاد الإفريقي تراجعت العديد من الدول الإفريقية عن موقفها المنحاز سابقا للطرح الانفصالي، وباتت تسعى إلى تمشين الجهود المبذولة من طرف مجلس الأمن لإيجاد حل سياسي دائم، فالمطلوب الآن من هذه المؤسسة هو الالتزام بالحياد أمام كل المناورات التي تحبك ضد حق المغرب في صحرائه ومعالجتها بكل حكمة وتبصر.

عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي بين التشويش التقليدي والتشويش الجديد

يمكن تصنيف التشويش المفضوح الذي يطال العودة الشرعية للمغرب إلى المؤسسة الإفريقية إلى صنفين:

التشويش التقليدي: وتترعمه الحكومة الجزائرية التي تفننت في السنوات الأخيرة بتوجيه أصابع الاتهام - وبشكل افتراضي - للمغرب بخصوص الانتهاكات في مجال حقوق الإنسان علما أنها تركت صحراوي تندوف في وضعية لا إنسانية واتخذتهم غنيمة حرب. فعددهم لا يتعدى حيا متوسطا بالعاصمة الجزائر وبالتالي كان بإمكانها تحسين وضعيتهم المعيشية ومعالجة هذه الخروقات وغيرها في مجال حقوق الإنسان عوض الاتهام المجاني للمغرب.

تطعم وتغذي هذا التشويش التقليدي جبهة البوليساريو التي عملت في الآونة الأخيرة على التلويح بورقة العودة إلى حمل السلاح والمطالبة بتفعيل مراقبة المينورسو لحقوق الإنسان بالصحراء. وكيف لها أن تطالب بذلك وزعمائها - على مرأى من المجتمع الدولي - ينهبون الثروات المهولة التي تبعث كمساعدات لساكنة مخيمات تندوف؟ فلعل هذا أكبر انتهاك في مجال حقوق الإنسان. ناهيك عما قامت به الجبهة في أحداث الكركرات من خرق "اتفاقية وقف إطلاق النار".

التشويش الجديد: وقد بدأ مع خرجة الأمين العام السابق للأمم المتحدة السيد بان كي مون في 5 مارس 2016م، وهي خرجة استفزت وطنية المغاربة ملكا وحكومة وشعبا بدليل ردود فعل المغاربة سواء داخل الوطن أو خارجه.

فالتصريح الذي أدلى به يعتبر من أخطر ما واجهه ملف الصحراء المغربية طيلة أربعين سنة¹³ لأنه زاع بمجلس الأمن بالأمم المتحدة عن الحياد المشروط فيه علما أن وظيفة هذا المجلس هو حل النزاعات بالسبل الدبلوماسية والودية.

واستمر هذا التشويش الجديد بالمواقف التي صدرت عن السيدة نكوسازانا دلاميني زوما رئيسة مفوضية الاتحاد الإفريقي، وذلك بمحاولاتها المتكررة لعرقلة العودة الشرعية للمغرب لهذه المؤسسة الإفريقية، مثل التماطل في توزيع طلب العودة على مختلف أعضاء الاتحاد الإفريقي.

ناهيك عن المناورات السياسية التي بدرت من البرلمان المصري مؤخرا حيث شارك فيه وفد يمثل جبهة البوليساريو في القمة العربية الإفريقية التي انعقدت في شرم الشيخ...

- مقومات نجاح المغرب داخل الاتحاد الإفريقي وآفاق الاعتراف بمغربية الصحراء:

بعد طرح إخفاقات التدبير الإفريقي للنزاع المفتعل حول الصحراء نتيجة ضغوطات كثيرة ومتنوعة كيف نقرأ إذن رهانات التحدي المغربي باتخاذ قرار العودة من جديد إلى المنتظم الإفريقي والدفاع عن موقفه؟

إن المغرب بعدما انتقل في الفترة الأخيرة من موقف الدفاع ردا على ضربات أعداء وحدتنا الترابية إلى موقف أقوى وهو موقف اتخاذ القرارات الكبرى، كان من المنتظر أن يفكر في قرار قوي شجاع كالعودة إلى كنف أكبر منظمة قارية بعد أن اختار "سياسة المقعد الفارغ" لمدة 32 سنة، وهو ليس بالقرار العفوي الفجائي ولا هو قرار اللحظة الراهنة، بل هي قناعة احتفظ بها المغرب منذ سنة الانسحاب¹⁴ لتتم أجزأتها وتفعيلها طيلة العهد الجديد بدليل الزيارات الملكية المكثفة التي شملت مختلف دول القارة الإفريقية، وآخرها تلك التي طالت شرق القارة، وهي زيارة تاريخية بكل المقاييس لكونها تشكل علامة فارقة في العلاقات الثنائية بين المغرب والدول الهامة في إفريقيا.

13 - تصريح بان كي مون جاء من بير لخلو وهي منطقة عازلة بين الصحراء المغربية وبين أراضي اللاجئيين بتندوف، وفي هذا تلميح صريح بانحياز هجملة وتفصيلا للطرح الانفصالي واعتبار هذه المنطقة العازلة تابعة للانفصاليين كما أن نعت المغرب بالبلد المحتل، وانحنائه لرأية الجمهورية الوهمية، وكذا إشارة النصر التي عبر عنها بيده، كلها تصرفات غير مسبقة وغير مسؤولة معناها - إن ظل على موقفه في اجتماع مجلس الأمن الذي كان سيعقد في أبريل 2016م - أن مقترح الحكم الذاتي تحت السيادة المغربية سيكون في المحك وسوف تعود المفاوضات إلى نقطة الصفر.

وهنا نشير إلى أن الدبلوماسية المغربية تمكنت بنجاح من تجاوز هذا الخطر، وقدم السيد بان كي مون اعتذارا عن موقفه.

14 - خطاب الحسن الثاني الذي ألقاه السيد أحمد رضا كديرة بقمة أديس أبابا في نونبر 1984م، أرشيف وزارة الشؤون الخارجية والتعاون، المملكة المغربية.

وعليه أصنف دعائم النجاح المغربي في هذا التحدي الذي رفعه إلى نوعين من المعطيات:
المعطيات القارية:

إن الظرفية الإقليمية تخدم العودة المغربية وبقوة ذلك أن زمن الإيديولوجيات قد ولى. فبعد أن بصم التقاطب الإيديولوجي لعدة عقود العلاقات الإفريقية البينية، بات الآن الدول الإفريقية حكاما وشعوبا تدعم المشاريع الهامة: إنها مرحلة الخيار التنموي.

والغرب الذي يؤمن حق الإيذان بتقوية تعاون جنوب - جنوب بمبدأ رابع - رابع قدم مشاريع ضخمة إذ فتح قنوات كثيرة للتعاون الاقتصادي، ومهد السبل أمام الكثير من الاستثمارات مما سيعود بالنفع على الدول المتعاقدة.

هذا دون أن ننسى ما قدمه المغرب إفريقيا من خيار للأمن الروحي. ففي ضوء التهديدات الإرهابية وخاصة في منطقة الساحل والصحراء، تعتبر التجربة المغربية في التعامل مع التحدي الإرهابي تجربة رائدة، وذلك بحكم الإصلاح الديني الذي باشره المغرب منذ قرابة عقد من الزمن: إصلاح قوامه الإسلام المعتدل.

بالفعل، فعندما تمكن المغرب من تقليص عوامل التطرف سعت الكثير من الدول الإفريقية إلى الاستفادة من تجربته في هذا المضمار، وتبلورت هذه الاستفادة في شكل تكوين أئمة ومرشدين أفرقة قصدوا المغرب للحصول على تكوين في الحقل الديني.

المعطيات المغربية:

إن مقومات الترافع المغربي بشأن ملف الصحراء المغربية تقوم على ثلاثة ركائز هامة:

- مقترح الحكم الذاتي تحت السيادة المغربية (2007م)

إن قوة موقف المغرب حاليا مستمدة من فلسفة هذا المقترح - وهو سقف قناعات المغرب في مفاوضاته - الذي يجمع بين مطلبى الوحدة والتدبير المحلي بكفاءات وطاقات محلية. فهو مقترح يحترم بموجبه هوية وثقافة وتاريخ سكان الصحراء ويستوعب أنه لا يمكن تبني سياسة تنمية شاملة بكل أرجاء المملكة المغربية الشريفة دون استحضار الخصوصيات والمقومات البشرية منها والمادية لكل الأقاليم ومن ضمنها الأقاليم الصحراوية.

- دسترة الحسانية (2011م)

لقد أقدم المغرب على خطوة جبارة حينما كرس الحسانية كأحد مقومات الهوية الثقافية المغربية الموحدة، وأناط بالدولة مسؤولية صيانتها وتنميتها وذلك بالفصل الخامس من دستور 2011م.

فكما لا يخفى علينا، شدد الدستور المغربي الجديد التنصيب على أن الديمقراطية والتنمية الاجتماعية باتت إحدى الثوابت الأساسية للمغرب، وبهذا فدعوته لصيانة الحسانية تعد بحق شكلا من أشكال الديمقراطية الثقافية بل ومكسبا للتنمية الاجتماعية بالأقاليم الصحراوية إذا ما تمت الاستفادة من التراث الحساني المادي منه واللامادي.

الجهوية المتقدمة (تفعيلها سنة 2016م)

لقد خلد المغرب ذكرى مرور أربعين سنة على استرجاع الصحراء المغربية في 6 نونبر 2015م بزيارة ملكية ميمونة إلى مدينة العيون ألقى بها أمير المؤمنين خطابا قويا تضمن التعريف بالمشاريع الضخمة التي ستحظى بها الجهات الثلاث للصحراء.

وبعد عودته إلى مدينة العيون ثم الداخلة ما بين السادس والتاسع من شهر فبراير 2016م، أعطيت الانطلاقة الرسمية لتلك المشاريع التنموية الكبرى التي تطال جميع القطاعات. ولعل أهم ما أبانت عنه هذه الخطوة المتميزة أن الخطة التنموية التي أنزلها المغرب إلى أرض الواقع بهذه الأقاليم هي بالأساس ذات صبغة اقتصادية واجتماعية، وهي تؤكد ثقة العديد من الدول للاستثمار بالصحراء المغربية.

ملاحظات واستنتاجات:

ختاما لابد من التذكير بأن المغرب وهو الابن البار للقارة الإفريقية، لا يحتاج تأكيد انتماؤه الإفريقي لأن أواصر علاقاته قاريا تستند إلى معطيات جغرافية وتاريخية وجيوسياسية واقعية.

فمنذ فترات موعلة في التاريخ والعلاقات المغربية الإفريقية¹⁵ تقوم على أساس التفاعل والتواصل الحضاري، والمغرب كان ولا يزال وسيظل من الدول الإفريقية الرائدة التي دعت إلى

15 - لقد صرح المغفور له الحسن الثاني في عدة مناسبات بأولوية توجه المغرب نحو إفريقيا قائلا: "المغرب شجرة جذورها في إفريقيا وفروعها في أوروبا".

- الحسن الثاني "التحدي" المطبعة الملكية، 1995، ط. 3، ص. 301.

التحرر الإفريقي والتي ساندت استقلال العديد من الدول الإفريقية ودعمت مسيرتها التنموية. فعلا، لقد جعل المغرب السياسة الإفريقية مبدءا ثابتا وراسخا في سياسته الخارجية، وعليه فعودته إلى الحظيرة الإفريقية واستعادة عضويته بالاتحاد الإفريقي هي نتيجة حتمية، هذا وإقناع أعضاء هذه المؤسسة القارية بعدالة قضيته هو تحصيل حاصل.

ولا أجد أفضل ما أنهي به مقالتي من استحضار فقرة مستقاة من نص الرسالة الملكية التي قدم فيها المغرب طلبه للرجوع إلى الاتحاد الإفريقي. وفيها يقول جلالته وهو يتحدث وبنه إلى الإجحاف الذي طال ملف وحدتنا الترابية من طرف منظمة الوحدة الإفريقية:

"وسيسجل التاريخ هذه المرحلة كخداع وتحريف للمساطر القانونية ولمقتضيات ميثاق المنظمة، من أجل تحقيق أغراض مشبوهة وهو تصرف يمكن مقارنته بالتغريب بقاصر لأن منظمة الوحدة الإفريقية لم تكن وقتها قد تجاوزت مرحلة المراهقة..."

فالأمل معقود على أن يكون الاتحاد الإفريقي قد تجاوز مرحلة المراهقة وبلغ مرحلة الرشد، ليكون في مستوى حدث العودة الشرعية لأحد مؤسسيها الأوائل ألا وهو المغرب، وليكون في مستوى الحكمة والتبصر المطلوبين لتدبير نزاع مفتعل حول الصحراء المغربية.

ملاحم من العلاقات التجارية والاقتصادية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء

د. منير روكي
أستاذ باحث - الأكاديمية الجهوية
الدار البيضاء سطات

شهدت العلاقات المغربية الإفريقية، طوال فترات تاريخية، ازدهارا كبيرا، فلطالما لعب المغرب دور الوساطة التجارية بين ما كان يسمى بلاد السودان وأوروبا، ونشطت من ثم العلاقات التجارية بين المغرب وعمقه الإفريقي، فقد اهتمت الأسر المتعاقبة على حكم المغرب بتنمية وتطوير هذه التجارة، وعيا منها بأهميتها لتقوية البلاد وضمان مداخل قارة لخزينة البلاد، بل أكثر من ذلك أن بعض الدول التي تأسست بالمغرب، كالمرابطين والعلويين، اعتمدت في انطلاقتها على مراقبة تجارة السودان، وهكذا إفريقيا حاضرة ومؤثرة في تاريخ المغرب. وحرص المغرب في كل الفترات التاريخية التي مر بها على الحضور الفاعل داخل المعترك الإفريقي لضمان موطن قدم متقدم داخله والهيمنة على تجارته بل وضمان ولاءات عابرة لحدوده.

وإلى جانب العلاقات السياسية والاقتصادية التي ميزت هذه الفترة التاريخية، فقد نشطت العلاقات الروحية والدينية بين الطرفين، فالمغرب يعود إليه الفضل في نشر الإسلام السني المالكي في تخوم إفريقيا السمراء عبر الزوايا برعاية رسمية، وهو ما أثمر في النهاية امتداد الإسلام داخل القارة الإفريقية، وما نشهده من ترابط صوفي وتعلق العديد من دول القارة، خصوصا في غرب إفريقيا بالمغرب، فهو خير دليل على هذا الإرث التاريخي الذي راكمه الجانبان.

نروم في هذا المقال محاولة كشف اللثام عن العلاقات التاريخية التي ربطت المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء ودور التجارة والتجار في تيسير هذه العلاقة، والتأثير في الشعوب الإفريقية في مجالات اللغة والدين والثقافة، قبل أن نقف على الآفاق الواعدة التي تربط المغرب بهذه الأصقاع في أفق تحقيق نموذج واعد للشراكة القائمة على محور جنوب - جنوب.

أولاً: جذور علاقات المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء

1- التجارة كآلية للوجود المغربي بالمنطقة:

امتد نفوذ المغرب التجاري ليشمل مناطق عديدة من العالم، فقد أهله موقعه الجغرافي ومكانته السياسية المتميزة طيلة العصور الوسيط والحديث من تبوأ مكانة متميزة على مستوى التجارة. ولم تخل الكتابات التي تناولت تاريخ المغرب، من إشارات متعددة حول دوره التجاري وحنكة تجاره حتى صار هذا القطاع حكراً على التجار المغاربة ردحاً طويلاً من الزمن.

وقد استفادت الحواضر المغربية (فاس - تطوان - ...) من حيوية النشاط الحرفي بها، وكذا العلاقات المتميزة التي كانت تربطها بالمناطق القروية المجاورة، الأمر الذي مكن تجارها من مادة أولية شكلت أساس العمليات التجارية التي اعتمدوا عليها. فانطلق التجار في نسج علاقات تجارية تعدى نطاقها المناطق القروية ليشمل كافة المدن المغربية الأخرى. بل إن إشعاعها سرعان ما امتد إلى العالم، فكانت البلدان الإفريقية محورا متميزا حرص التجار المغاربة على توطيد العلاقات التجارية مع أغلبها. وأقام التجار أيضا بعدد من دول أوروبا، فأسسوا مراكز تجارية في كل من مرسيليا ومانشستر وجنوة وفرانكفورت وغيرها، وحرصوا على التعامل معها، ليس فقط خلال القرن التاسع عشر، بل قبل ذلك بمدة طويلة. وقد ترتب عن توسع شبكة التجارة المغربية أن تعددت مواردها وبالتالي تنوعت بنيتها، فشملت الصادرات مختلف المواد التي تميزت بها حواضر المغرب منذ قرون عديدة كالأحذية والأثاث والجلود وغيرها من المواد الفلاحية الأخرى، في حين كانت أهم وارداتها مكونة أساسا من الأقمشة والنسيج والسكر.

يعتبر النشاط التجاري من أقدم الأنشطة الاقتصادية بالمغرب، ففي مدينة فاس مثلا، يرجعه المؤرخون إلى السنوات الأولى لتشييدها¹، إذ تبوأ التجار مكانة مهمة داخل المجتمع الفاسي، وأصبحت المدينة تتصدر النشاط التجاري بالغرب الإسلامي². وقد عرف هذا النشاط أوج قوته وفترات ازدهاره في عهد كل من الموحدين والمرينيين، قبل أن تصاب المدينة ببعض الركود أواخر المرينيين وحتى القرن الثامن عشر³.

1 - حسن قرنفل: أهل فاس: المال والسياسة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط 1، 2007م، ص 56.

2 - اكينخ العربي، انفتاح المغرب على السوق الدولية في القرن التاسع عشر وانعكاساته على تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لبداية المغرب: نموذج قبائل هضبة سايس، مجاط جروان، بنو مطير، مطبعة إنفو برانت، فاس، 2005م، ص 137.

3 - يمكن حصر الأسباب التي أدت إلى هذا الركود التجاري والاقتصادي الذي عرفته فاس خلال هذه المرحلة، إلى عاملين اثنين: أولهما يتمثل في الحصار الاقتصادي الذي عانى منه المغرب بسبب الكشوفات الجغرافية وتحول الطرق التجارية من البحر =

ومع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر بدأت فاس تشهد تحولا في أحوالها التجارية، وأخذت الموازين تنقلب شيئا فشيئا إلى أن أفضت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى تحول جذري في مكانة المدينة التجارية.

وقد حرصت المدينة على نسج علاقات اقتصادية مع مختلف الحواضر والقرى المغربية، بل وامتد نفوذها ليشمل عدة دول من شمال إفريقيا والمشرق العربي، كما امتد ليشمل عددا من دول الغرب المسيحي.

امتد نفوذ التجارة المغربية ليشمل دولاً إفريقية عديدة كتونس والسنغال التي تعتبر محطة أساسية راهن عليها تجار المغرب، حيث مثلت هذه التجارة - حسب روني لوكليرك - بأكثر من 30 وكالة في السنغال، لاسيما دكار وسان لوي⁴.

ترجع أسباب الوجود التجاري بالسنغال إلى الرغبة في إقامة مشاريع تجارية وتصدير البضائع المغربية إلى هذا البلد وغيره من بلدان إفريقيا الغربية. ويرى دانفريفيل⁵ الذي كتب تقريرا عن الجالية المغربية في سان لوي عام 1905م، أن سنة 1880م هي تاريخ بداية الهجرة المغربية إلى السنغال. وقد كان مولاي علي الكثيري أول مغربي هاجر إلى هذا البلد⁶. ونظرا للنجاح الذي لقيته تجارته، فقد استدعى أصدقاءه وعلى رأسهم أحمد برادة⁷، أما لوتورنو فيرى أن هذا التاجر كان قد ذهب إلى السينغال قصد الاتجار في الكتب الدينية، وسرعان ما باع المصنوعات الجلدية والأقمشة ثم التحق به عدة مغاربة، جلهم من فاس، جاؤوا عن طريق البحر، وبلغ عددهم 112 سنة 1905م، وأقاموا بسان لوي، ودكار، وروفييسك، وتيس وتروان، وعلى طول النهر إلى كايس، احتكروا تجارة النعال وقسطا من تجارة المنسوجات⁸.

= الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي. أما العامل الثاني فيتمثل في العلاقة السياسية الغير مستقرة بين أهل فاس والمخزن السعدي والعلوي والمتجسدة في معارضة أهل فاس لحكم محمد الشيخ السعدي ومقاومتها لحكم المولى رشيد ومساندتهم للدلائين. فضلا عن الحروب الأهلية التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل وخروجهم عن المولى سليمان سنة 1820م. انظر العربي اكينح: مرجع سابق، ص 137.

4 - leclerc.Ch,R, *Le commerce et l'industrie a Fès*, In *renseignement coloniaux*, Juillet 1905. P 15.

5 - L.D'Anfreville :*Les Marocains en Afrique occidentale*. In, *Renseignement colloniaux* III-1905-P149

6 - عبد الواحد أكميز: الجالية الفاسية في إفريقيا الغربية، ضمن: فاس وإفريقيا، العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية- جامعة محمد الخامس السويسي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية-الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 3، 1993، ص 165.

7 - أكميز: مرجع سابق: ص 165.

8 - روجي لوتورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ج 1، صص 616-617.

في حين يشير PANEL إلى أنه أثناء إقامته بسان لوي عام 1850م، تعرف على مغربي من مدينة فاس، وهو الحاج عبد السلام، وأن هذا الأخير كان قد هاجر إليها قبل ذلك سنتين أو ثلاث⁹.

وفي سنة 1881م، أنشأ الشريف سيدي محمد متجرا ببروفيسك، كما أنشأ الطاهر كنون ومحمد بنجلون محلاتهما التجارية بدكار. أما في سنة 1905م فقد كان في إفريقيا الغربية ما مجموعه 112 تاجرا أكثرهم فاسيون، كما أن نشاطهم لم ينحصر في المدن بل تعداها إلى القرى والتجمعات السكانية الصغيرة¹⁰. وفي نفس السنة، كان نصف المحلات التجارية التي يملكها المغاربة بالسنگال يوجد بسان لوي¹¹.

دفع النجاح الاقتصادي بفاسي دكار إلى البحث عن أسواق جديدة بمختلف عواصم إفريقيا الغربية، وقد شكلت باماكو نقطة إغراء لهم نتيجة تضافر عدة عوامل، فهناك وجود خط حديدي مباشر يربطها بدكار يسهل نقل السلع التي كان يستقدمها المغاربة من أوروبا والمغرب، ثم هناك سهولة ترويج هذه السلع باماكو خصوصا منتجات الصناعة التقليدية المغربية والتي يرجع سبب الإقبال عليها إلى التأثير الثقافي المغربي القوي بمالي¹².

كانت مدينتا سان لوي وتمبوكتو سباقتين لاستقبال مهاجرين مغاربة، لذلك عرفتا أهم حضور اقتصادي مغربي في إفريقيا الغربية خلال النصف الأول من القرن العشرين، ففي بدايته كان بالأولى عدد من التجار المغاربة الذين تتراوح ثروتهم بين 250 ألف و500 ألف فرنك، وبالثانية كان المغاربة يمتلكون عام 1907م، خمسة من بين ثلاثة عشر أهم محل تجاري يوجد بالمدينة¹³.

وبالنسبة للسودان الفرنسي (مالي الحالية)، يشير الحاخام موردشاي الذي مر بتمبوكتو عام 1864م إلى أن الجالية المغربية المقيمة بالمدينة تتكون من 651 تاجرا ينتمون إلى مناطق توات وفاس وتافيلالت¹⁴.

9 - Panel, L. *Relation d'un voyage du Sénégal a Souera en 1950*. Ed. Le livre africain, Paris, 1968. CF, TAMOUH, Z. *le Maroc et le Soudan au XIX siècle*. Thèse de doctorat. Université Paris I. Paris, 1982. P. 51. Inédit.

10 - L.D'Anfreville, Op.cit.- p 153-154

11 - أكميز: مرجع سابق: ص 168

12 - أكميز: مرجع سابق، ص. 177.

13 - Rapport confidentiel du Gouverneur de Haut Sénégal et Niger. Dakar, 9-1-1907

14 - Dubois, F. *Tombouctou La mystérieuse*. Ed. Flammarion, Paris, 1987, P.55

غير أنه ومنذ أربعينات القرن العشرين ونتيجة للتحويلات الاقتصادية التي عرفتها المنطقة تراجع الحضور الاقتصادي المغربي في المدينتين سالفتي الذكر، نتيجة لإغلاق نهر السنغال الذي كان يربط سان لوي ببقية الجهات، في وجه الملاحاة التجارية، وتراجع تجارة القوافل الصحراوية التي كانت تربط تمبوكتو بجنوب المغرب. في تلك الأثناء تحولت دكار إلى أهم مركز اقتصادي بإفريقيا الغربية الفرنسية، خصوصا بعد ترميم مينائها الذي أصبح أهم ميناء في القارة وبوابة جل صادرات وواردات المنطقة. هذا التحول دفع بالتجار المغاربة للانتقال بشكل جماعي من سان لوي إلى دكار حيث تركزوا في شارع "فانسان Vencent" (محمد الخامس حاليا) الذي أصبحوا يمتلكون به ما بين أربعين وخمسين محلا تجاريا.

اهتم الحاج عبد الكريم بنيس بتجارة الأثواب، كما كانت له صلات تجارية مع عدد من المدن المغربية، سافر مع والده الحاج قدور بنيس الفاسي إلى السنغال حيث أقام هناك مجموعة من المحلات التجارية حقق من خلالها أرباحا مهمة قدرت بنصف مليون فرنك، فضلا عن مجموعة من الأراضي بأولاد جامع¹⁵.

أما بخصوص المواد المتاجر بها، فنجد على رأسها اللباس التقليدي كالفططان والجلباب والحايك والبلغة، فضلا عن النسيج الأوربي¹⁶. فقد كانت فاس تستورد كميات هامة من النسيج بلغت قيمته 925.000 فرنك من فرنسا و900.000 من إنجلترا، حيث دفعت وفرة النسيج بفاس إلى إعادة توزيعه بالسنغال¹⁷. وقد حقق التجار أرباحا طائلة من وراء هذه التجارة.

15 - ينتمي الحاج عبد الكريم بن الحاج قدور إلى عائلة بنيس المعروفة بمدينة فاس والتي يقول عنها الكتاني "واعلم أيضا أن هؤلاء من عوام قداماء فاس، وبيتهم بيت معروف. وتقدم فيهم العلماء الأخيار والأمناء والتجار وأهل الثروة وذوو الكلمة وهم صريحة واحدة".

عبد الكبير بن هاشم الكتاني: زهر الآس في بيوتات فاس، تحقيق د. علي بن المنتصر الكتاني، منشورات: مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء - الطبعة الأولى، 2002م - ج 1، ص 176.

16 - فيما يخص النسيج الأوربي، فإنه إلى غاية النصف الأول من القرن 19م كانت بلاد السودان هي الممون الأول للسنغال من النسيج، وقد كان النسيج القطني السوداني يتميز بجودة تسمح له كذلك بغزو أسواق تافيلالت ودرعة، إلا أنه مع بداية النصف الثاني من هذا القرن، لم يعد هذا النسيج يستطيع مقاومة النسيج الأوربي سواء من حيث الجودة أو التكاليف، وقد كان ذلك بداية لتراجع إنتاج النسيج السوداني الذي أصبحت هناك صعوبة في تسويقه ببلاد السودان نفسها. خلال هذه الفترة وإلى مطلع القرن 20 كانت مدينة فاس تستورد كميات هائلة من هذا النسيج الأوربي، وكان هذا النسيج يتضمن أشكالا مختلفة على رأسها النسيج القطني، الحرير، المناديل، الأغطية، الجوارب وغيرها.

عبد الواحد أكميز: مرجع سابق، ص. 168.

17 - عبد الواحد أكميز: مرجع سابق، ص. 168.

2- توطين الصلات الثقافية والدينية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء:

ابتدأت العلاقات والصلات الثقافية بين المغرب ومناطق إفريقيا جنوب الصحراء منذ وقت مبكر لاسيما بعد دخول الإسلام إلى إفريقيا، غير أنها لم تأخذ في التأثير على المجتمع الإفريقي إلا بفضل الحركة الإصلاحية للمرابطين ودعاتهم الذين عملوا على إيصال الحضارة المغربية - الأندلسية إلى مجاهل القارة الإفريقية¹⁸. فالروابط التاريخية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء موعلة في القدم¹⁹، ورغم تراجع قوة العالم العربي الإسلامي خلال القرن 19م وتحول مركز التأثير إلى الدول الأوروبية الاستعمارية التي قسمت إفريقيا إلى مستعمرات ومناطق نفوذ فيما بينها، فإن هذه العلاقات تميزت بالاستمرارية، وتمت عبر قنوات متعددة تتداخل وتتفاعل فيما بينها وعلى رأسها التجارة.

إن اعتناق سكان غرب إفريقيا الإسلام عن طريق احتكاكهم بالتجار المسلمين هو حدث أساسي فيما يخص تسرب الدين الإسلامي إلى أصقاع إفريقيا جنوب الصحراء، وقد ساهمت الجاليات المغربية والإسلامية الكثيرة في نشره، وعلى رأسها التجار، ولا بد في هذا الإطار من إيلاء أهمية خاصة للعقلية المفتوحة للأرستقراطية السياسية والتجارية في المدن²⁰، أي الفئات العليا من المجتمع في هذه المناطق، التي فهمت بسرعة أن من مصلحتها التحالف مع أرستقراطية التجار والفقهاء المسلمين. فقد جاء اعتناقها للإسلام، تأكيدا لرغبتها في تشكيل جبهة إسلامية قادرة على توطيد التيارات التجارية بالشمال الإفريقي²¹.

18 - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، بيروت، 1988م، ص. 238.

19 - إن انتشار الإسلام والثقافة المغربية في غرب إفريقيا مدين للنشاط التجاري الذي كان منتعشا بين هذه الحواضر وأقاليم إفريقيا شمال الصحراء. فقد دأبت القوافل التجارية على مخر عباب الصحراء في رحلات شاقة وطويلة وكان للتجار المغاربة والفاسيين منهم دور فعال في رعاية هذه الحركة التجارية. وهكذا دخل المسلمون في علاقة تفاعل حضاري وثقافي بفعل قيام حركة تجارية مزدهرة بين الإقليمين وقد أصابت الثقافة العربية والعلوم الإسلامية حظا وافرا من الانتعاش، ولاسيما في الحواضر السودانية، ذات الإشعاع الاقتصادي مثل كومبي وتومبوكتو ونياني وجيني وغاوا، لترسب بعد ذلك إلى المناطق النائية من البلاد. كما أن القوافل التجارية الوافدة من المغرب لم تكن لتخلو من رجالات العلم والثقافة، فكتب التاريخ حبل بأسماء الأعلام المغاربة الذين جمعوا بين نشاطهم التجاري وتضلعه في العلوم الدينية.

شوقي عطا الله الجمل، "الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا، سماتها ودور المغرب فيها"، مجلة المناهل، ع. 7، 1976م، ص. 134- أيضا: جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، دار الفكر العربي بيروت، 1996م، ص. 155.

20 - إذا كانت التجارة التي حملت معها كثيرا من القيم الثقافية العربية - الإسلامية هي إحدى العوامل السوسيو- تاريخية الأكثر أهمية لنشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، فإن انتشار الديانة الإسلامية في الأوساط الملكية للسودان الغربي في العصر الوسيط يفسر في بعض الأحيان بكون الإسلام تقدم في المقام الأول على أنه ديانة أرستقراطية ومدنية. فالعالم السوداني كان يلقي التأثيرات الحضارية الإسلامية عن طريق التعامل التجاري الذي دفع بالتجار السودانيين إلى الدخول في حظيرة الدين الإسلامي وفي نسقه القانوني والإداري.

Moreau, R.L, *Africains musulmans, Des communautés en mouvement*, Editions Présences Africaines, Paris, 1982, p.73-74.

21 - Ibid, P.80.

لقد كانت التجارة تشكل إحدى القنوات التي تم عبرها التواصل بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وأداة لتمرير العناصر الثقافية بين الطرفين²²، إذ لم تساهم مسالك التجارة العابرة للصحراء في نقل المواد التجارية فحسب، بل ساعدت على نقل القيم والأفكار الثقافية²³ وإثرائها وحدوث تمازج على المستوى الثقافي بين البلدين، بل أبعد من ذلك، كان هذا النشاط عامل تكامل ووحدة وليس عنصر تفكك وتفرقة بين البلدين²⁴ مما ساعد على ظهور تراث مغربي إفريقي مشترك.

وبالرغم من كونهم قلة، فقد كان تجار مدينة فاس مثلاً بالدول الإفريقية عاملاً مساعداً على توطيد أركان الإسلام سواء من خلال معاملاتهم التجارية أو عبر علاقاتهم الاجتماعية التي ربطوها مع سكان المنطقة.

أشارت عدد من الكتابات إلى استقرار التجار المسلمين في عدد من المدن الإفريقية وقيامهم بتكوين أحياء خاصة بهم وأقاموا فيها المساجد والمدارس مما كان له عظيم الأثر في نشر التعاليم الإسلامية²⁵، لقد أسهم التجار بدور كبير في عملية التبادل التجاري مع بلاد السودان، وحمل هؤلاء التجار سلع المغرب والعقيدة الإسلامية ونشروها في هذه البقاع، وأسسوا بها مراكز تجارية تعتبر أيضاً مراكز حضارية إسلامية، وارتبطت البيوت المغربية بهذا النشاط التجاري، منها آل المقرئ الذين كونوا أول مقاوله تجارية تخدم التجارة بين المغرب وبلاد السودان الغربي وتتخذ من مدن سجلماسة وتمبوكتو ومالي مراكز لها²⁶.

من جانب آخر، نجد أن أفراد الجالية الفاسية عملوا على نشر الثقافة الإسلامية حتى تجذرت بهذه المناطق، وبما أن الكتابة هي إحدى النقاط الهامة في جميع المعاملات التجارية، فقد عمل سكان مناطق إفريقيا جنوب الصحراء على تعلم اللغة العربية للتعامل مع التجار المسلمين القادمين من الشمال. والواقع أن اللغة العربية ليس لغة تجارة فقط، وإنما هي لغة القرآن الكريم التي يحتاجها

22 - Zakari, d.ISSIFOU, les XIV et XV dans les relations entre l'Afrique, soudan occidental et la méditerranée, CIACIRS, Paris, 1985, P176

23 - زبادية عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين: 1493-1591م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م، ص. 137.

24 - ABITBOL, M Tombouctou et les Arma, Paris, Maisonneuve et Larose, 1979, p185

25 - يخبرنا أبو عبيد الله البكري عن احتواء مدينة غانة على عدد من البيضان المسلمين في حي خاص بهم أقاموا فيه 12 مسجداً أحد هذه المساجد يجتمع فيه الأئمة والمؤذنون وبها أيضاً فقهاء وحملة علم.

البكري أبو عبيد الله، المسالك والممالك، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع بيروت، لبنان، 2003م، ص. 175.

26 - زاهر رياض، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، أثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، ص. 129.

السكان لأداء فروضهم الدينية خاصة الصلاة، وهي لغة الشؤون الإدارية في البلاد ولغة التجار والسفراء المغاربة عموما والفاسيين على وجه الخصوص. فاللغة العربية²⁷ استطاعت لا أن تفرض نفسها كلغة وحيدة فقط، ولكنها أصبحت اللغة الأكثر انتظاما واستعمالا، وغدت إلى جانب الدين المظهر الأساسي لوحدة المجتمعات الإفريقية²⁸.

إن الحضور العام للجاليات المغربية الإسلامية بدول إفريقيا جنوب الصحراء كان مناسبة لخلق جملة من العلاقات الاجتماعية ويعد الزواج من أبرزها، فقد حرص عدد من التجار الفاسيين على تزويج أبنائهم أو بناتهم من سكان هذه المناطق الأمر الذي كان له انعكاس على طبيعة هذه العلاقات والمكانة الاجتماعية التي يحصل عليها التاجر، ونعثر على أمثلة لأفراد من عائلات تجارية فاسية مثل عائلة المقري بولاتة. فقد اتخذ أفرادها "الأقطار والحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الإمام"²⁹. والواقع أن الأبناء الذين ولدوا من هذا الزواج المختلط ساهموا في تركيز سلالات تجارية وعلمية بهذه المناطق، فالتاجر والشريف أحمد الصقلي مثلاً ترك أبناء وأحفاداً في السودان الغربي يعتبرون مثله شرفاء.

المحور الثاني: آفاق علاقات المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء

1- في خلفيات التوجهات الإفريقية "الجديدة" للمغرب:

إن تحليل الوجود المغربي بإفريقيا لا يخرج في كل الأحوال عن أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن ما يقوم به المغرب في إفريقيا لا يخرج كثيرا عن دور المناولة الذي تتكفل به الشركات المغربية في بعض الجيوب التي استوجبها أو يستوجبها التوزيع العالمي الجديد للعمل؛ حيث يشتغل لفائدة الفاعلين الاقتصاديين الدوليين أو المستثمرين الأجانب، الذين أعادوا النظر في توقعاتهم بجهة آسيا وأميركا اللاتينية وغيرها. لذلك فعلى الرغم مما قد يبدو تراجعا للمبادلات

27 - تأثرت اللغات المحلية باللغة العربية، فأخذت كثيرا من مفرداتها وأساليبها وجزءا منها، وحوالي 30 لغة إفريقية كانت تكتب بالحرف العربي ومن بينها كبريات اللغات الإفريقية التي يتكلم بها عشرات الملايين اليوم في إفريقيا ومن بينها السواحلية والهوسا والفلاي ولغة المانديكان واللغة الصومالية.

بوفضل حسن، "جذور العلاقات بين الثقافة الإفريقية والثقافة العربية"، مجلة تاريخ العرب والعالم، عدد 89-90، دار النشر العربية، ص. 89.

28 - أحمد الغربي، ص. 570.

29 - المقري أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ج 5-205.

التجارية والاستثمارية بين إفريقيا والدول المستعمرة لها سابقا، فإن حجم تلك المبادلات لم يتغير كثيرا؛ إذ لا يزال لفرنسا مثلاً نصيب الأسد فيها.

• أما الأمر الثاني : فيرتبط بمحاولة المغرب تنويع شركائه الاقتصاديين بالاتجاه صوب إفريقيا؛ وذلك في ظل الأزمة الاقتصادية التي يعرفها شركاؤه التقليديون (بالاتحاد الأوروبي تحديدا)، وانحسار الطلب التقليدي الذي كان المحرك الأساس للعلاقات بين طرفي المتوسط.

أما الخلفيات المحددة لهذه التوجهات فمتعددة إحداها ذات طبيعة دينية صرفة؛ إذ ينظر الأفارقة المالكيون وأتباع الزوايا الصوفية إلى جلالة الملك محمد السادس باعتباره أميراً للمؤمنين؛ والمالكية في عرف المغاربة والأفارقة ليست ديناً قائماً فحسب؛ إنها ممارسة دينية تتغذى على مبادئ الوسطية في الإسلام، وتتبنى قيم التسامح والاعتدال والانفتاح على الآخر.

لذلك أطلق المغرب مبادرة تكوين الآلاف من الأئمة بالبلدان التي يزورها، ناهيك عن توزيع الآلاف من المصاحف أيضاً، بل وتوظيف هذا البعد الديني للوساطة في النزاع بـ "مالي" بين الحكومة المركزية وجماعة أزواد الانفصالية، وهي وساطة باركتها القوى الكبرى (لاسيما فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية)؛ على الرغم من معارضة الجزائر المعلنة للتوجه ذاته.

أما الخلفية الثانية، فمن طبيعة جيوسياسية خالصة؛ إذ لا يقتصر مداها فقط على الإسهام في فض النزاعات الداخلية للبلدان الإفريقية المعنية؛ بل يتعداه إلى الإسهام في محاربة الإرهاب وتجارة السلاح، والحيلولة دون تدفق تيارات الهجرة لأوروبا؛ التي تتخذ من المغرب نقطة عبور مفضلة.

إن المغرب - بهذه الجزئية - لا يريد أن يظهر بمظهر الفاعل المباشر، مظهر "شرطي الحدود" بين إفريقيا وأوروبا، بقدر ما يتطلع إلى تخفيف الاحتقانات بمنطقة الساحل؛ وذلك عبر المشاريع الاقتصادية والاجتماعية المنتجة، ومن خلال الترويج لإسلام معتدل؛ الذي من شأنه قطع الطريق على سياسة استقطاب الشباب والزج بهم في صفوف الحركات المتطرفة والتكفيرية.

هذه كلها خلفيات جزء منها جلي، وجزء آخر مضمّر؛ لكن ثمة خلفية نفسية نادرا ما يولى لها الاهتمام الكافي، ومفادها عمل المغرب على توسيع رقعة الدول الإفريقية المتبينة - بهذا الشكل أو ذاك - لقضيته الوطنية، قضية الصحراء المغربية؛ إذ أن تزايد الوجود المغربي ببلدان إفريقيا الغربية، ليس من شأنه فقط ضمان "استمرارها على موقفها" من نزاع الصحراء؛ بل من شأنه - أيضاً - إغراء دول أخرى مناهضة لموقف المغرب؛ لكنها قد لا تمنع في تغيير رأيها إذا ما تم تغليب المصلحة المباشرة من لدن قادتها.

2- المغرب وإفريقيا: أفق واعد لنموذج تعاون جنوب - جنوب

تبدو الحاجة ماسة إلى إحياء الدور المغربي في إفريقيا والعودة به إلى جذوره الإفريقية³⁰ من خلال سياسة دبلوماسية إفريقية تعيد إلى المغرب هيئته الضائعة داخل القارة وتحيي إرثه التاريخي هناك وهو ما فطن إليه هذا الأخير من خلال الاهتمام المتزايد الذي يبداه جلالته الملك بتنمية وتقوية العلاقات المغربية الإفريقية من خلال نهج أوجه جديدة للسياسة الخارجية المغربية تقوم على إعادة الاعتبار لعلاقات التعاون جنوب - جنوب³¹.

ويمكن القول إن الزيارة الأخيرة التي قام بها جلالته الملك محمد السادس نصره الله إلى دول غرب إفريقيا والتي شملت بلدان مالي غينيا كوناكري والكابون، وساحل العاج تدرج ضمن هذا السياق، ونلمس ذلك أكثر من خلال الخطاب التاريخي الذي ألقاه جلالته في محطته الأخيرة من الزيارة بالكوت ديفوار بمناسبة إعطاء انطلاقة أشغال المنتدى الاقتصادي المغربي الإفريقي الذي انعقد بالعاصمة "أبيدجان" الذي وضع خارطة طريق للفاعلين الاقتصاديين بين البلدين وباقي الدول الإفريقية على أساس تعزيز أسس التعاون والتكامل "جنوب - جنوب" وخلق قطب اقتصادي إفريقي كبير يحقق التنمية ويلبي تطلعات الشعوب الإفريقية التي تشد التقدم والتنمية³²، ويمكن القول إن هذا الخطاب يعتبر الأول والأقوى من نوعه في تاريخ إفريقيا الحديث بالنظر إلى الرؤية المتكاملة التي جاءت بها مضامين الخطاب الملكي التي وضعت ما يمكن أن نسميه "بخارطة الطريق" للنهوض بالتنمية في إفريقيا التي رزحت لعقود من الزمن تحت التخلف والفقر والأمراض والحروب الأهلية التي مزقت نسيجها المجتمعي وأعدمت كل فرص التنمية ودفعت بشعوب القارة

³⁰ - قد يبدو أن آفاق الوجود المغربي بإفريقيا (بغربها اليوم وباقي جهاتها في المستقبل) آفاق مغرية وواعدة، على الأقل بالقياس إلى الاندفاع المتزايد للمغرب بهذا الجزء من العالم، منذ وصول الملك محمد السادس إلى الحكم؛ وقد يبدو أن ذات التوجه لا يمكن إلا أن يتجسد وينجح؛ وذلك بحكم أنه يدخل ضمن سياق التعاون شمال-جنوب ثم جنوب-جنوب، الذي لا يتعارض كثيرا مع طبيعة التقسيم العالمي الجديد للعمل، وقد يبدو أن هذا التوجه لا يمكن إلا أن يتعمق، كونه لا يمتنع من منطلق استغلال هذه البلدان، والإفادة من التميز الكبير الذي تعرفه بالمجالات الاقتصادية، كما بالمجالات الاجتماعية والصحية والتعليمية وما سواها.

يحيى اليحياوي، "الصين في إفريقيا بين متطلبات الاستثمار ودوافع الاستغلال"، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، 9 يونيو/حزيران 2015م.

³¹ - أصدرت وزارة الاقتصاد والمالية المغربية سنة 2014 نشرة ضممتها أهم المعطيات الاقتصادية بين المغرب والدول الإفريقية: Ministère de l'économie et des finances (Maroc), «Point sur les relations du Maroc avec les pays de l'Afrique subsaharienne», Rabat, Mai 2014

³² - راجع في هذا السياق:

Mekouar. F, «Le Maroc à la conquête de l'Afrique», Regards, n° 3, 2013

إلى الهجرة نحو الشمال، هذه الأخيرة التي تحولت إلى ملف أمني أثرت حوله كثير من النقاشات السياسية بين دول الاتحاد الأوروبي من جهة، وبين دول الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

أما البعد التأسيسي الثاني في خارطة الطريق الملكية هو إعادة الاعتبار للبعد الاقتصادي في العلاقات بين الدول الإفريقية - في إطار علاقة جنوب - جنوب - ذلك أن العلاقات الدبلوماسية وحدها أصبحت متجاوزة ولا تلبي تطلعات الشعوب الإفريقية نحو التقدم والتنمية والازدهار. فالمقاربة الدبلوماسية وحدها تحرم بلدان إفريقيا من استثمار إمكاناتها الاقتصادية فيما بينها في إطار تكتلات إقليمية وقارية³³. إن هذه الدينامية الاقتصادية من شأنها أن تحل كثيرا من المشاكل التي تعاني منها إفريقيا ويوقف تسونامي الهجرة التي تعرفها القارة نحو "الشمال المتقدم" وذلك بإنعاش التشغيل والدورة الاقتصادية من خلال المشاريع الكبرى عامة، ولكن أيضا من خلال المشاريع الصغرى والمتوسطة لدورها الكبير في امتصاص البطالة وخلق الثروة، مع الاعتماد الكلي على الكفاءات الوطنية في جميع مراحل إنجاز المشاريع، حيث يمكن الاستئناس في هذا المجال بالتجربة المغربية.

خاتمة:

إن العلاقات المغربية الإفريقية رغم آفاقها الواعدة مستقبلا تبقى رهينة الصراع الجيوسياسي المفتعل حول الوحدة الترابية للمغرب، وهو الصراع الذي يحرم هذا التعاون من قناة رسمية مهمة وهي منظمة الوحدة الإفريقية التي انسحب منها المغرب بسبب ارتهاق قرارها السياسي والاستراتيجي لبعض الدول الإفريقية المعادية لقضيتنا الوطنية. وقد بدا واضحا أن هذا التعاون كي يأخذ طريقه للنجاح لابد من تحرير هذه المنظمة من مواقف هذه الدول التي تعتبر معرقلا كبيرا لهذا التعاون لاعتبارات عدة أولها، أنها تحاول أن تزرع كيانا مزعوما في الجسد الإفريقي سيؤدي لا محالة إلى مفاقمة الأزمات السياسية والإثنية والعرقية المؤدية إلى الحروب الأهلية التي عانت منها إفريقيا ولا زالت وعطلت مسيرتها التنموية تاريخيا، ناهيك أن الدفع باتجاه خلق كيان انفصالي في جنوب

33 - حول حجم التبادلات الاقتصادية بين المغرب وإفريقيا يراجع :

Amadeus, «Partenariat Maroc-Afrique : 15 recommandations pour un co-développement responsable et durable», Institut Amadeus, Rabat, Juillet 2014

المغرب سيحرم المغرب من صحرائه التي لعبت دورا تاريخيا واستراتيجيا في الربط بينه وبين إفريقيا جنوب الصحراء. فالأقاليم الجنوبية للمملكة هي الجسر الترابي والجغرافية السياسية التي تؤمن علاقة المغرب بعمقه الإفريقي وعن طريق هذه العلاقة ترتبط إفريقيا بأوروبا. من هذا المنطلق أولى المغرب أهمية بالغة لهذه الأقاليم على مستوى التنمية المستدامة وبذل مجهودات كبيرة تاريخيا لكي تبقى هذه المنطقة همزة وصل بين الشمال الإفريقي وجنوبه من جهة وبين إفريقيا وأوروبا وباقي العالم من جهة ثانية. من هذا المنطلق فإن من شأن عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي أن يؤدي إلى حل قضية الصحراء وتعزيز التعاون المشترك على أساس المساواة. كما أن هذه العودة ستعني فشل فكرة هيمنة دولة واحدة على المنطقة المغاربية، وسيسلط الضوء على أهمية تحقيق مشروع المغرب الكبير، الذي من شأنه أن يحول المنطقة المغاربية إلى قاطرة تقود التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إفريقيا برمتها ودول جنوب - جنوب بصفة عامة.

الصحراء قناة لتبادل الأفكار والقيم الروحية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث وبداية المعاصر

د.الحسين عماري
أستاذ التعليم العالي مؤهل
بالمركز الجهوي لمهن التربية
والتكوين - بني ملال

لاشك أن المجال الطبيعي يعتبر من العناصر الفاعلة والحاسمة في التاريخ، بحكم الدور الهام الذي يضطلع به العامل الجغرافي في التطور التاريخي¹، بل إن التاريخ الشمولي يكاد يكون جغرافية للماضي السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني، على اعتبار أن البعد الجغرافي الحقيقي يهتم بالتفاعلات مع المجال والعاملين فيه، مما يدل على وجود تلازم بين الزمان والمكان في فهم الأحداث التاريخية، وانفتاح التاريخ على الجغرافية والعكس².

ومن هذا المنطلق، فإن مقارنة هذا الموضوع تحتم علينا أن نقيم اعتبارا كبيرا جدا للصحراء، ليس فحسب كمعطى جغرافي، بل كعامل مؤثر وعنصر فاعل في تطور المغرب³، وكإحدى الثوابت الرئيسية التي تحكمتم في مسار تاريخه ومنعطفاته الكبرى، لذلك، فإن أية قراءة لتاريخ المغرب لا تستحضر العمق الاستراتيجي للصحراء، تعد ناقصة وعديمة الفائدة، كما أن المغرب لا يمكن عزله

1 - صهود، محمد، "الخريطة التاريخية أو تعريف الحدث من منظور التأويل الجغرافي"، جريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد 5922، بتاريخ 1999/10/28م، ص.7.

2 - في هذا الإطار، يلفت بروديل انتباه المؤرخ إلى المجال الطبيعي الحاسم - كالصحراء - بالنسبة "للأنشطة الإنسانية" (مؤنس، إبراهيم، "بروديل والتاريخ الجديد"، مجلة آفاق تربوية، نيابة وزارة التربية الوطنية بعمالة ابن مسيك سيدي عثمان فرع جمعية التعاون المدرسي، السنة 1995، عدد 10، ص 55-56)، ويضيف جوزيف كي زربو قائلا إن: "المجال خارج نطاق أية حتمية جغرافية، هو مهندس التجربة المعاشة، وأنه يبقى ضروريا لفهم تاريخ إفريقيا بشكل خاص، وتاريخ العالم بشكل عام" انظر التقديم الذي قام به هذا الباحث ضمن:

(1988), *Atlas historique de l'Afrique*, Paris, les éditions de Jaguar, p.9.

3 - العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984م، ص.98.

عن عمقه الصحراوي وجذوره الإفريقية الجنوب صحراوية بالنظر إلى هذا الدور الوازن والفاعل الذي ظلت الصحراء تلعبه في حياة هذا البلد.

وعلى ضوء هذه الأهمية التي اكتسبتها الصحراء كمجال للتواصل، وهزمة وصل بين شمال وجنوب الصحراء⁴، يسعى هذا الموضوع إلى تسليط الضوء على العلاقات الثقافية والروحية والتفاعل الحضاري الذي تم بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، بفضل موقعه الجغرافي الذي جعل منه ملتقى تقاطع تيارات وأفكار ورؤى متعددة من ضمنها الإفريقية الجنوب صحراوية⁵.

كما تروم هذه الورقة، الإجابة على بعض التساؤلات التي يطرحها الباحث في الدراسات الإفريقية من أجل فهم الماضي ليصبح وسيلة لتقويم الحاضر واستشراف المستقبل، ولأن الضرورة أصبحت تحتم على المغرب تفعيل واستثمار هذه الذاكرة وهذا التراث الثقافي والتاريخي المشترك في تمكين روابطه مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، وخلق آفاق التكامل معها اقتصاديا وسياسيا وثقافيا لمواجهة بعض التحديات المطروحة، ومواكبة ما يشهده عالم العولمة من تحولات سريعة ومتوالية ولاسيما إدراك المخاطر الأمنية التي تهدد الساحل الإفريقي والمنطقة المغاربية من خلال تزايد الجماعات المسلحة، والدعوة إلى التعصب الديني والعنصرية واللغوي.

وبحكم الصلات والعلاقات التاريخية الوثيقة التي جمعت منذ القديم بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء والتي تمت عبر قنوات مختلفة، لعبت فيها الزوايا والطرق الصوفية وبعض المراكز التجارية والرحلات الجغرافية والعلمية وبعض الدعاة وأقطاب الحركات الإصلاحية، وركب الحج الشنقيطي، وكذا الحروب رغم سلبياتها، دورا فاعلا وبالع الأهمية، هذه الصلات التي تمثلت في عدة مظاهر وتجليات، وأسفرت عن تفاعل حضاري وتلاقح علمي وثقافي وروحي بين الطرفين المغربي والإفريقي الجنوب صحراوي، فإننا نسعى إلى الإجابة على الإشكالية التالية:

ما هو الدور الذي قامت به الصحراء عبر هذه القنوات في هذا التلاقح والتفاعل الحضاري الذي تم بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء؟ وما هي مظاهر وتجليات هذا الاحتكاك والاتصال الحضاري الذي تم بين الطرفين والذي أسفر عن ظهور تراث مغربي - إفريقي مشترك سيظل شاهدا على عمق هذه الروابط؟

4 - Issifou, Z. Dramani (1982), *L'Afrique noire dans les relations internationales au XVIème s, analyse de la crise entre le Maroc et le Songhaï*, Paris, éditions Karthala, p. 5.

5 - عماري، الحسين، "الزوايا كقناة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر" مجلة المناهل وزارة الثقافة، ملف *الزوايا في المغرب*، ج1، عدد مزدوج 80-81، محرم 1428هـ/ فبراير 2007م، ص. 275.

قامت الصحراء عبر قنوات عديدة بدور مهم في التلاقح والتفاعل الحضاري الذي تم بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء وتجلّى ذلك في عدة مظاهر.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل، لم تشكل الصحراء أبدا حاجزا طبيعيا بين المغرب وإفريقيا، حيث جمعت بينهما خلال قرون عديدة علاقات مختلفة، اجتماعية، وثقافية، وسياسية، وتجارية، وهذه العلاقات ما تزال قائمة إلى يومنا هذا، بل تعرف انتعاشا كما تشهد على ذلك أفواج الطلبة الأفارقة الذين يتدفقون على المغرب طلبا للعلم والتثقل للحج، والاستثمارات المغربية جنوب الصحراء، وحركة سير الشاحنات المحملة بالبضائع...، وقد تمت هذه الصلات التي شكلت فيها الصحراء عامل اتصال بين الطرفين عبر قنوات متعددة، نذكر منها: التجارة العابرة للصحراء، فما هو الدور الذي اضطلعت به هذه الأخيرة في هذا السياق؟

التجارة جنوب الصحراء: تبادلات مادية وثقافية

شكلت التجارة الصحراوية بالفعل إحدى القنوات التي تم عبرها التواصل بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء وأداة لتمرير العناصر الثقافية المختلفة بين الطرفين⁶، إذ لم تساهم مسالك التجارة الصحراوية في نقل المواد التجارية فحسب، بل ساعدت على نقل القيم والأفكار الثقافية⁷ وإثرائها وحدوث تمازج على المستوى الثقافي بين البلدين⁸.

ولم يقتصر دور القوافل التجارية السالكة لتلك المحاور على نقل المواد التجارية فحسب، بل "حملت معها الرسالة المحمدية، والثقافة العربية الإسلامية، والتجارب الحضارية لشعوب ضفتي الصحراء، في عملية أخذ وعطاء متجددة في الزمان والمكان"⁹.

6 - زبادية عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493-1591)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971م، ص. 137. و عطا الله الجمل شوقي، "تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي"، المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث"، وقائع الندوة الدولية التي نظمها معهد الدراسات الإفريقية، مراكش 23-25 أكتوبر 1992م، ص. 36.

7 - Issifou, Z.Dramani (1986), «les XIV et XVs dans les relations entre l'Afrique (Soudan occidental) et la méditerranée », C.E.A sur : *L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'ouest africain du Moyen âge à la fin de l'époque coloniale*, C.I.A.C.I.R.S., Paris.A.VIème, Erfoud 20-25 oct 1985, Gruppo walk over. Bergamo- Italia 1986, p. 134.

8 - بن شريفة محمد، "بين أحمد باب وأحمد المنصور"، المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، وقائع الندوة الدولية التي نظمها معهد الدراسات الإفريقية، مراكش، 23-25 أكتوبر 1992م، ص. 65.

9 - ولد السعد محمد المختار، "مسالك القوافل ودورها في التواصل الثقافي بين طرفي الصحراء خلال القرن 19م (قراءة في رحلة الولاة)"، طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، باتنة، مطابع عمار قرفي، 2001م، ص. 99.

ولعبت مدن ومراكز جنوب المغرب وشماله، كفاس، ومراكش، وإيليج، وكذا بعض المراكز الصحراوية والسودانية، كودان، وشنگيط وولاتة، وتشيت وتنبت، وجني، وكاو دورا بالغ الأهمية في ترسيخ أواصر التواصل والتلاحم بين المغرب والأقطار الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء¹⁰.

وإلى جانب التجارة الصحراوية، شكلت الدعوة ونشر الدين والطرق الصوفية قناة للتواصل الثقافي والروحي بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، فما هو الدور الذي اضطلعت به في هذا الإطار؟

- المجاهدون المغاربة ونشر الدعوة والإصلاح بإفريقيا الغربية

لم تلبث العلاقات بين الطرفين السوداني والمغربي أن اتخذت أشكالا إيجابية، تمخضت عن ارتباط حضاري وتبادل ثقافي تجلّى في توافد عدد كبير من العلماء والصلحاء من مختلف المراكز الثقافية المغربية على بلاد السودان للجلوس مع نظرائهم في الجوامع ومؤسسات التدريس¹¹، واستقبلت الجامعات المغربية بدورها العشرات ممن لمع اسمهم في تاريخ المنطقتين¹².

ومن بين الشخصيات الجهادية التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإصلاح والتوعية ببلاد السودان محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي انتقل إلى مملكة صنغاي بالنيجر، مروراً ببلاد التكرور، وكان مجاهداً في سبيل الإسلام بتلك الأوصاف¹³، حيث انشغل خلال هذه المرحلة، بالدعوة، والوعظ، والتدريس، والقضاء، والإفتاء، وزار خلالها مدن الهاوسا مثل كاتسنا/كشن¹⁴، ولاسيما منها كانو التي قضى بها عشر سنوات تفرغ فيها لنشر العلم، مما مكنه من استقطاب عدد هائل من

10 - عماري الحسين، "فاس حلقة للتفاعل الحضاري بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث وبداية المعاصر"، دراسات وبحوث حول إفريقيا والمجال العربي - المتوسطي، ج2، أعمال مهداة للمفكر د. هشام جعيط، إشراف وتقديم إبراهيم محمد السعداوي، تونس، مركز النشر الجامعي، 2013م، ص. 752-753. و الظريف، محمد (1993م)، "التواصل الثقافي بين المغرب والسودان خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين"، ندوة أحمد بابا التمبكتي، مراكش 22-25 صفر الخير 1412هـ/5-2 سبتمبر 1991م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1414هـ/1993م، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص. 59.

11 - الغربي محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982م، ص. 513.

12 - نفسه.

13 - ناعوس بن يحيى الطاهر، "سيرة محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني"، مقال إلكتروني <http://www.alukah.net>، نشر بتاريخ 2010/6/9م.

14 - يشير طرخان هنا، إلى أن المغيلي نجح في إقناع ملكها الساركن إبراهيم ماجي باعتناق الإسلام. إبراهيم علي طرخان إمبراطورية صنغاي الإسلامية. كلية الآداب، جامعة الرياض، مجلد 8، 1981م، ص. 68.

الطلبة¹⁵، وقد استقبل بحفاوة وقربه أمراءها وملوكها، وجعلوا منه مستشارهم الخاص وإطارهم المرجعي في مجال الفقه، وكتب لهم رسائل ووصايا وفتاوى في أمور الحكم والدولة والسياسة الشرعية، لقيت قبولا وأقرتها الطائفة الدينية¹⁶.

وبعد كانوا، اتجه المغيلي ما بين 1497-1502م نحو گاو التي كانت له فيها مراسلات مع الأسكيا الحاج محمد الذي ربطته به علاقات طيبة¹⁷، أسفرت عن ظهور مؤلف للمغيلي عرف ب"أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي" الذي شكل نموذجا للحوار الديني والسياسي الذي دار بين الطرفين¹⁸، وهو بذلك يجسد صورة للتبادل الفكري والثقافي الواسع بين المغاربة وجيرانهم السودانيين¹⁹.

ويمكن القول، إن عبد الكريم المغيلي لم يكن سوى عينة ممن احتفظ بالتاريخ بأسمائهم من العلماء والفقهاء الذين وفدوا إلى إفريقيا جنوب الصحراء وتركوا فيها بصماتهم وآثارهم.

وإذا كان هذا هو دور بعض المجاهدين المغاربة في نشر الدعوة والإصلاح بإفريقيا الغربية، فما هو دور الطرق الصوفية في هذا السياق؟

- الزوايا والتفاعل الحضاري بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء

ساهم المغاربة في توطيد الصلات الروحية والثقافية بين شعوب صفتي الصحراء²⁰، وفي وضع لبنات الثقافة السودانية وإقامة صرحها²¹، من خلال توافد الطرق الصوفية من مراكزها الثقافية على

15 - M'Baye, El -Hadji Ravane (1972), « Un aperçu de l'Islam Songhay ou Réponses d'Al- Magili aux Questions posées par Askia El- Hadj Muhammad Empereur de Gao », Annotation et traduction, Bulletin de l'I.F.A.N. Tome XXXIV, Série B, n° 2, p.238.

وبن يحيى الطاهر ناعوس، م.س.

16 - Ibid.

17 - Ibid., p.238-239.

18 - عماري الحسين، "المغيلي الداعية والمصلح الديني والسياسي ببلاد السودان الغربي" أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي"، تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية 2011م، أعمال ملتقى دولي بتلمسان يومي: 12-13 ربيع الأول 1433هـ/ 5-6 فيفري 2012، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011م، ص. 80.

19 - المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسقية وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م، ص. 17-18.

20 - عطا الله الجمل شوقي، الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا، سياتها ودور المغرب فيها، المناهل، 1967م، ج. 7، ص. 131. و صابر، شريف خالد، "دور مدينة فاس في نشر الطريقة التيجانية في إفريقيا جنوب الصحراء"، أعمال الندوة الدولية حول فاس وإفريقيا العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط س.ن.م 3 وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس - فاس، 28-30 أكتوبر 1993م، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص. 236.

21 - الظريف محمد، التواصل الثقافي بين المغرب والسودان خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، م.س، ص. 61.

بلاد السودان، بل إن هذه الزوايا شكلت في حد ذاتها إحدى مظاهر وتجليات الروابط والصلات الثقافية التي جمعت بين الطرفين والتي كانت لها انعكاسات إيجابية عديدة على الجانبين²²، ومن بين هذه الزوايا التي كانت حاضرة بقوة في هذا التواصل والتفاعل الحضاري: الزاويتان التيجانية والمختارية الكنتية.

وقد انطلق إشعاع الأولى من المغرب وبالضبط مدينة فاس ليخترق خلال القرن التاسع عشر الصحراء وبلاد السودان، "مضيفا لبنات جديدة في صرح الصلات والروابط" التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان²³، وقد تم ذلك على يد الشيخ سيدي أحمد التيجاني²⁴، أما وصولها إلى بلاد شنقيط، فكان على يد الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي الذي جعل منها شعارا لقبائل إذا وعلي التي اعتبرت صلة الوصل الأساسية بين فرعي التيجانية بالمغرب والصحراء وما وراءها²⁵، ويرجع انتشار هذه الطريقة ببلاد السودان إلى استقرار العلويين بعدة مراكز وبلاد التارازة، وبلغت أوجها باعتراف الحاج عمر الفوتي توري لها، مؤسس أول إمبراطورية تيجانية عن طريق الجهاد سنة 1884م، واستمرت إلى استيلاء الفرنسيين عليها سنة 1894م²⁶، ويرجع الفضل إلى هذه الطريقة في القضاء على الصراعات القبلية، حيث انصهرت القبائل الإفريقية التي اعتنقتها في بوتقة واحدة، تجلت في تعاليم الحضارة الإسلامية، كما ساهمت في نشر الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، وشكلت صلة وصل بين مسلمي الشمال والجنوب من خلال تبادل الزيارات، والآراء والأفكار²⁷.

22 - نفسه، ص. 61-62.

23 - الأزمي أحمد، "دور الزاوية التيجانية في تمتين الروابط بين مدينة فاس وإفريقيا جنوب الصحراء"، فاس وإفريقيا والعلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، الرباط منشورات معهد الدراسات الإفريقية، س.ن.م، 3، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس، 28-30 أكتوبر 1993م، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص. 246.

24 - هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سليم التيجاني، ولد حوالي 1150هـ/1737م بواحة عين ماضي جنوب مدينة الأغواط، حل بفاس لاستكمال دراسته سنة 1171هـ/1757م، فتعرف على مختلف الطرق الصوفية، وأخذ العلم على عدد من فقهاء القرويين، ثم توجه إلى تلمسان ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ليستقر في نهاية المطاف بأبي سمغون في الصحراء، وتحت ضغط السلطات العثمانية، استقر بمدينة فاس سنة 1796م، حيث استقبل بحفاوة كبرى من طرف الرعية والسلطان المولى سليمان، وبحكم معارضة الزوايا لنشاطه نصح أبناءه بالعودة بعد وفاته إلى أبي سمغون وعين ماضي، وهذا ما حصل بالفعل سنة 1815م، إذ تفرعت الطريقة إلى زاوية تمانسي نسبة إلى الشيخ سيدي علي التمانسي الذي عينه الشيخ سيدي أحمد خليفة له قبل وفاته، وزاوية عين ماضي ممثلة من طرف أحفاد سيدي أحمد التيجاني (الأزمي أحمد، م.س، ص. 242-243 و صابر شريف خالد، م.س، ص. 237. و هامش 4، ن، ص).

25 - الأزمي أحمد، م.س، ص. 246. و طموح فاطمة الزهراء (1989م)، "إفريقيا والمغرب"، معلمة المغرب، عدد 2، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، نشر مطابع سلا، ص. 557.

26 - طموح فاطمة الزهراء، م.س، ص. 557.

27 - صابر شريف خالد، م.س، ص. 239.

أما الطريقة المختارية الكتنية، فهي بدورها من أهم الزوايا التي ساهمت في توطيد العلاقات الثقافية بين المغرب والسودان الغربي، لاسيما على يد الشيخ المختار الكتني²⁸ الذي حرص على نشر تعاليمها في المناطق الصحراوية، وقد استقر أحفاده خلال القرن التاسع عشر بالأزواد قرب تنبكت، وتمكنوا من ربط علاقات متينة مع المغرب الذي تعددت به زوايا هذه الطريقة، حيث وجدت بأزمور، ومكناس، ومراكش... ويشير المرحوم المنوني اعتمادا على شهادة مؤرخ فرنسي إلى أن مريدي هذه الطريقة كانوا "يرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا... إلى جامع القرويين بفاس... فيخرجون من هناك طلبة مجازين أي أساتذة، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان"²⁹.

وأقام السلاطين المغاربة، كعبد الرحمن بن هشام (1822- 1859م) ومحمد بن عبد الرحمن (1859-1873م) علاقات مع المختارية ومختلف القوى السياسية في المنطقة، كأمرأء الحوصة، والفلولانيين، وأمرأء ماسينا، وفي هذا الإطار، يشير المرحوم المنوني مرة أخرى إلى الرسائل التوجيهية للسلاطين المغاربة، تضمنت توجيهات تهتم الحياة الفردية والاجتماعية والدفاع عن الإسلام، كرسالة الشيخ المختار الحفيد إلى المولى عبد الرحمن بن هشام والتي تعرف ب"الرسالة الكتنية إلى الحضرة السلطانية" تحثه على تفهم علوم القرآن الكريم، والاعتناء بمواعظه، بالإضافة إلى توجيهات حول سياسة الحكم، ودعوة العلماء إلى تعميم التعليم في صفوف الناس، كما أثارت قضية احتجاج الحكام³⁰ وكذا "النصيحة" التي كتبها الشيخ أحمد البكاي داعيا فيها أهل فاس ومكناس ومراكش إلى إحياء الجهاد بالمغرب والرجوع إلى الكتاب والسنة، وتبسيط مسطرة القضاء³¹.

28 - يرى إسماعيل حامي Ismaël Hamet أن هذه الأسرة الصحراوية تنتمي لقبائل زناتة الإفريقية، قامت قبائل صنهاجة بطردها نحو المغرب الأوسط والأقصى والصحراء مرورا بكل من سجلماسة وتوات، أما هنري بارث H.Barth فيرى أنها من أصل عربي، شكلت منذ زمن بعيد عنصرا متميزا، سكن المنطقة الممتدة من تكانت إلى ودان عبر أكان، وأنها تنسب إلى سيدي محمد الكتني الصغير الذي انفصل عن أخويه سيدي أبي بكر الحاج وسيدي عمر الشيخ اللذين تنحدر منهما قبائل كتنة، ويضيف أن هذه الأخيرة بعد نزوحها إلى الصحراء في بداية سنة 1717م استقرت بالأزواد.

Hamet, Ismaël, «Les Kounta», R.M.M publiée par la mission scientifique du Maroc, Paris, Krans Reprint, p.303-315.

29 - طموح فاطمة الزهراء (1992) م.س، ص. 557. ومحمد المنوني، "المدرسة الكتنية كأبرز قناة بين الإفريقيتين في العصر الحديث" العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، الرباط، منشورات جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، ص. 64.

30 - طموح فاطمة الزهراء، م.س، ص. 557. والمنوني، نفسه، ص. 67-69.

31 - محمد المنوني، م.س، ص. 68-69.

وإذا كان هذا هو الدور الذي اضطلعت به الصحراء في ترسيخ الصلات الثقافية والروحية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء عبر قناة الزوايا، فما هو دور الرحلات العلمية في ذلك التواصل الروحي والثقافي الذي تم عبر نفس المجال؟

الرحلات العلمية والتواصل بين المغرب والسودان

إذ وفد على المراكز المغربية مثل فاس ومراكش وغيرهما عدد من طلاب وعلماء بلاد السودان، من تنبكت وغيرها، ودرس كثير من هؤلاء الطلبة في جامع القرويين³². كما توالى على غرب إفريقيا عدد من العلماء والمثقفين من مختلف المراكز الثقافية المغربية ومنها مدينة فاس للتدريس في مدارس ومساجد تنبكت، وجني، وغيرهما من الحواضر السودانية³³، ومن بين هؤلاء العلماء نذكر الفقيه عبد الرحمن التميمي الذي درس الفقه المالكي بفاس ليتمكن من مضاهاة علماء السودان، ثم رحل إلى تنبكت ليدرس في مسجد سنكري³⁴، ومخلوف بن علي بن صالح البلالي الذي درس في ولاتة مبادئ العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه، ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاسينا، و"...حن إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش حيث مات سنة 1533م بعد عودته الثالثة إلى السودان..."³⁵، والفقيه المغربي سقين شيخ المنجور الذي كان عالما بالحديث، ورحل إلى بلاد السودان مرتين، مرة أولى وهو في طريقه إلى الحج، ومرة ثانية أقام فيها وأنجب الأولاد³⁶، وكذلك العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي ولد بتوات وانتقل إلى فاس بهدف الدراسة العليا، وهاجر إلى السودان حيث أصبح أكبر أستاذ في تكدة وگاو وكانو، واتصل في گاو بالأسكيا الحاج محمد الذي استدعاه وناقش معه مجموعة من المشاكل الفقهية³⁷.

32 - عطا الله الجمل شوقي، "تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي". المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، وقائع الندوة الدولية التي نظمتها معهد الدراسات الإفريقية، مراكش، 23-25 أكتوبر 1992م، ص. 53. والظريف محمد، م.س، ص. 63.

33 - عماري الحسين، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن XV م إلى القرن XVIII م. إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقاته التجارية مع السودان الغربي خلال العصر الحديث، أطروحة جامعية، نوقشت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بتاريخ 2003/7/1م، ج2، ص. 333. والظريف، م.س، ص. 63.

34 - السعدي عبد الرحمن (1981)، تاريخ السودان، تحقيق هوداس وبنة، باريس، مكتبة أمريكا والشرق، ص. 57. والظريف، م.س، ص. 63. زبادية، عبد القادر (1971م)، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493-1591م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص. 144.

35 - زبادية، م.س، ص. 148. ومحمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، م.س، ص. 517.

36 - محمد حجي، محاضرات السلك الثالث، السنة الجامعية 1988/78م، شعبة التاريخ، تخصص دراسات إفريقية.

37 - الغربي، م.س، ص. 514.

وتم كذلك تواصل مستمر بين فقهاء السودان وعلماء سوس، إذ إلى جانب العلماء الأفارقة الذين درسوا في المراكز المغربية وبالضبط سوس، "كمحمد بن عثمان بن عمر الولي دفين تارودانت قاعدة السوس الأقصى"³⁸، وأحمد بابا التنبكتي الذي شكل مظهرًا من مظاهر التفاعل الحضاري بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، لكون السنوات التي قضاها بالمغرب كانت حافلة بالعمل العلمي سواء على مستوى التدريس أو التأليف، مما جعله يقول: "فقد اشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى الجزائر وعنابة وإلى ما وراءهما"³⁹، رحل مثقفون مغاربة إلى إمبراطورية مالي وتشاد ونيجيريا⁴⁰.

السفر إلى الحج بوصفه معززا للروابط الروحية

إذ كانت قوافل الحج بالنظر إلى الطاقم الذي احتضنته والمتكون من علماء وأئمة، ومفتين، وقضاة، وتجار...، بمثابة جامعة متنقلة⁴¹.

وقد تمت هذه العلاقات عبر قناة الركب الشنكيطي الذي كان يتم في إطار رسمي من طرف ملوك بلاد السودان الذين حرصوا على أداء فريضة الحج وضم في نفس الوقت، فقهاء وعلماء من تلك البلاد، وشكل التوجه نحو الديار المقدسة، فرصة مواتية لزيارة بعض البلدان الإسلامية كالمغرب، وتبادل المعرفة والثقيف مع أساتذتها ومشايخها⁴².

وبدأت هذه الظاهرة بشكل جلي في عهد منسى موسى، من أشهر سلاطين مالي، الذي قام برحلة إلى الشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج سنة 1324م سالكا طريق الشمال من عاصمة مالي على نهر النيجر عبر ولاتة في اتجاه توات إلى الشمال⁴³، وقد خلفت هذه الرحلة صدى كبيرا في العالم

38 - الولاتي البرتلي، أبو عبد الله فتح (1401هـ / 1991م)، الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص. 15.

39 - الغربي، م.س، ص. 540.

40 - عدناوي عبد الرحيم، "الجدور التاريخية للعلاقات المغربية الإفريقية". مجلة العلوم الاجتماعية أبحاث، العدد 24، ص. 126-127.

41 - التازي عبد الهادي، طرق الحج: جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب: طرق الحج البعد الثقافي والحضاري. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 2007/1428م.

الموقع الإلكتروني www.attarikh-alarabi.ma

42 - محمود حسن أحمد (1986م)، الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، ص. 230. وعبد الهادي التازي، م.س.

43 - Bovill, E. W., (1958), *The Golden Trade of the Moors*, London, p.37.

بأسره، لما تميزت به من أبهة⁴⁴، وخلالها وجه منسى موسى رسالة للسلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب، يخبره بأن موكبه سيمر من الطريق الإمبراطوري المحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط، فأصدر السلطان المغربي أوامره بحراسة موكب السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء، واستقبلت المملكة ضيفها بحفاوة كبرى⁴⁵، وفي مصر قابل حاجب السلطان المريني هلال ملك مالي وترسخت بينهما المودة⁴⁶.

ولم تنفصم عرى الصلات الثقافية بين الجانبين المالي والمريني لاسيما في عهد السلطان أبي الحسن المريني، بحكم اتباع مذهب مالك⁴⁷، حيث كان فقهاء هذا المذهب دائمي الاتصال بفقهاء السودان، يتبادلون الفتاوى والتوايف والرحلات، إذ يذكر صاحب تاريخ السودان - كما سبق أن رأينا - أن عبد الرحمن التميمي جاء من أرض الحجاز صحبة منسى موسى أثناء عودته من الحج، فسكن تنبكت التي وجدها حافلة بالفقهاء السودانيين، ولما فطن إلى تفوقهم عليه في الفقه المالكي وحتى يتمكن من مضاهاتهم، رحل إلى فاس وتفقه هناك ثم رجع مرة أخرى إلى تنبكت ليستقر بها ويتولى مهمة تدريس الطلبة بمسجد سنكري⁴⁸.

ولم تلبث هذه الصلات، أن تجددت في عهد نفس السلطان المريني - أي أبي الحسن المريني - ومنسى سليمان، حيث تم تبادل السفارات وحسن الجوار بين الطرفين والهدايا⁴⁹.

وسعى ملوك وعلماء مملكتي صنغاي وكانم - بورنو على غرار نظرائهم الماليين من قبل إلى تعزيز الصلات الروحية والثقافية مع المغرب الإسلامي عبر قناة ركب الحج، الذي يبدو من خلال ما سبق، أنه لم ينحصر فقط في مقاصده المتمثلة في السفر إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج كما يبدو من خلال إطاره العام، بل كان وسيلة لربط الصلات الروحية والثقافية بين بلاد السودان والمغرب والمشرق الإسلاميين، حيث شكل شريان الحياة العلمية وباعث الثقافة والفكر، ورافد المعرفة والتصوف والقيم الإنسانية، مما جعله يشكل بحق جامعة متنقلة، وجسرا للتواصل الروحي والثقافي بين مختلف أقطار البلاد الإسلامية ومن بينها المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.

44 - عمر عبيد حسنة، طرق انتشار الإسلام في غربي إفريقيا، المكتبة الإسلامية Library.Islam web.net والغربي، م.س، ص.47.

45 - الغربي، م.س، ص.47. وشوقي عطا الله الجمل، م.س، ص.52.

46 - بن خلدون عبد الرحمن (1959م)، كتاب العبر، مجلد7، دار الكتاب اللبناني، ص.236.

47 - القلقشندي أحمد (1913-1920م)، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ج5، دار الكتب المصرية، ص.297.

48 - السعدي، م.س، ص.51. وعمار، فاس حلقة للتفاعل الحضاري بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث وبداية المعاصر، م.س، ص.761.

49 - ابن خلدون، كتاب العبر، مجلد7، ص.225.

وإذا كان هذا هو دور ركب الحج، فما هو الدور الذي اضطلعت به الحروب في التواصل الذي تم بين المغرب وبلاد السودان عبر المجال الصحراوي؟

- الحروب ومسألة التلاقح الثقافي بين المغرب والسودان

ترتب عن الحملة التي قام بها أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد السودان سنة 1591م، بروز ظاهرة هجرة نخبة من صفوة العلماء، الذين ساهموا في إثراء العلاقات الثقافية بين المغرب وبلاد السودان، حيث أتيحت لهم فرصة الاحتكاك المباشر بالتراث الثقافي المغربي ووجدوا من المصادر حول أعلام الإسلام ما لم يكن متوفرا لهم في بلادهم، فسمح لهم ذلك بإغناء المكتبة المغربية السودانية بالجديد في ميدان التأليف، وساهموا بصورة فعالة في الحركة العلمية بالمغرب، وتعتبر أسرة آل أقيت، ولاسيما أحمد بابا الذي يعد أحد جهابذة الفكر الإسلامي في إفريقيا الغربية، أبرز نموذج لهذا الصنف من العلماء، فكيف ساهم هذا العلامة في إغناء التواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان؟

رغم أن الظروف التي جاء فيها أحمد بابا إلى مدينة مراكش كانت حرجة وأليمة، فإن محتته هذه كانت نعمة على المستوى المعرفي والنشاط الفكري، إذ مكنه مقامه بالعاصمة السعدية من توسيع آفاقه العلمية بفضل خزاناتها الغنية ونوادير المخطوطات، مثل مكتبة جامع الشرفاء، ومكتبة السلطان أحمد المنصور السعدي، ومكتبة ابن يوسف⁵⁰. كما أشبع نهمة العلمي من مكتبة زيدان - الذي كان يعتبره شيخا له - "حيث كان شغوبا بالكتب وزيارة المكتبات، خبيرا بأصول المخطوطات على غرار آل أقيت الذين كانوا يتنافسون في شرائها من المغرب ومصر"⁵¹.

كما أتاحت له فرصة إقامته بمراكش، مناظرات مع علماء المغرب لاسيما منهم أحمد المقرئ صاحب "نفع الطيب" وابن القاضي "مؤلف الجذوة"⁵²، فأفاد واستفاد.

وبنفس المدينة، شرع في ممارسة مهنة التدريس في جامع الشرفاء، إذ كان يلقي دروسا في النحو والبلاغة والفقه المالكي منه، وحظيت دروسه بإقبال كبير بفضل تمكنه من مادة الفقه ومعرفته تراجم الرجال، وأصبح مرجعا أساسيا للطلبة والفقهاء طوال مدة إقامته بمراكش، مما جعله أحد أعمدة

50 - أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، على هامش الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب لإبراهيم بن فرحون اليعمرى القاهرة، 1351هـ، ص. 343-344.

51 - بنشريف محمد "إفادة أحمد بابا التمكن من الخزانة المغربية"، كتاب أحمد بابا التمكن، إيسيسكو، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، (1414هـ/1993م)، ص. 81-82.

52 - بنشريف، 1414هـ/1993م، ص. 81.

الحياة الفكرية والثقافية في المغرب، إن لم نقل في شمال إفريقيا، كما كان يصدر الفتاوى في مكان إقامته الجبرية⁵³.

وشكلت الفترة التي قضاها بالمغرب وبالضبط بمدينة مراكش - من 1593 إلى 1607 - قمة عطائه ونتاجه طوال فترات حياته الثقافية المختلفة⁵⁴، لأنها منحتة الإطار الذي مكنه من أن يؤلف في غضون أكثر من نصف أعماله، التي لاتزال في عدة خزائن مغربية، أي ما يعادل أكثر من تسع وعشرين من مجموع مؤلفاته المعروفة التي يبلغ عددها ستة وخمسين مؤلفاً، "مما يدل على الدور الذي كان لمنه في إثراء مداركه واختراق شهرته خارج حدود بلاده"⁵⁵.

ولعل من بين العوامل التي جعلت فترة إقامته هذه بمدينة مراكش مثمرة وحافلة بالعطاء، المناخ الفكري الذي ميز عصر المنصور الذهبي الذي كان يتيح الفرصة للبحث والإنتاج بفضل تشجيعه وتقديره للفقهاء والعلماء⁵⁶.

وبذلك يمكن القول، إن التجربة التي عاشها أحمد بابا التمبكتي بالمغرب كانت أخصب مراحل حياته الثقافية⁵⁷، ولاشك أن ما اكتسبه خلالها سينعكس عليه بشكل إيجابي أثناء عودته إلى تنبكت في 27 مارس 1607م، حيث تفرغ للعلم ولمهنة التدريس وإعداد الفتاوى⁵⁸، كما ساهم في إغناء الحياة الثقافية ببلاد السودان، مما جعله يشكل أحد أبرز مظاهر النهضة الثقافية الإسلامية بإفريقيا في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين⁵⁹، ومثالا للتواصل الثقافي الذي تم بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء⁶⁰.

53 - محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. الرباط، 1398هـ/1978، مطبعة فضالة، ص. 383. ومحمود عبدو زبير، "السيرة الذاتية لأحمد بابا التمبكتي (1556-1627م)" كتاب أحمد بابا التمبكتي، إيسيسكو، 1414هـ/1993م، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص. 74-75.

54 - زبير عبدو، 1414هـ/1993م، ص. 75.

55 - نفسه. وعبد العزيز بن عثمان التويجري، "كلمة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة"، كتب أحمد بابا التمبكتي، إيسيسكو، 1414هـ/1993م، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص. 10.

56 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، 1972. ص. 256. وشوقي عطا الله الجمل، "تفاعل أحمد بابا التمبكتي مع البيئة المراكشية الجديدة وأثرها على حياته العلمية (1010-1040هـ)"، كتاب أحمد بابا التمبكتي، إيسيسكو، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1414هـ/1993م، ص. 126.

57 - زبير عبدو، السيرة الذاتية لأحمد، م-س، ص. 458.

58 - نفسه، ص. 76. ودائرة المعارف الإسلامية، عدد 1، ص. 458.

59 - قرقزان محمد "أحمد بابا علم النهضة الثقافية في غرب إفريقيا"، كتاب أحمد بابا التمبكتي، إيسيسكو، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1414هـ/1993م، ص. 129.

60 - بنشيفة، إفادة أحمد بابا التمبكتي، م-س، ص. 79.

خلاصة

من خلال ما سبق، يتضح أن الصحراء قامت بدور بالغ الأهمية في الصلات الثقافية والروحية التي انتظمت منذ القديم ولاسيما خلال العصر الحديث وبداية المعاصر بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، حيث ساهمت في نسج علاقات متينة ووشائج عميقة بين الطرفين، مما أدى إلى ظهور ارتباط حضاري وتبادل ثقافي وروحي، بل تراث مغربي- إفريقي مشترك سيظل شاهدا على عمق هذه الروابط. وقد تمت هذه الصلات الفكرية والروحية عبر قنوات مختلفة أهمها، التجارة الصحراوية، والدعوة ونشر الدين الإسلامي والحركة الصوفية، والرحلات العلمية، وركب الحج الشنكيطي، وفي ظل تحديات العولمة وما يعرفه العالم من تحولات سريعة ومتوالية فقد أصبح من المفروض على المغرب استثمار هذا التراث الثقافي والتاريخي المشترك في تمتين روابطه مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، وخلق آفاق التكامل معها على جميع المستويات.

جوانب من إسهام الفقهاء المغاربة في انتشار تعاليم المذهب المالكي بالصحراء المغربية والسودان الغربي

د. أحمد الأزمي

أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس

ظهر المذهب المالكي في بداية أمره وانتشر، كما هو معروف في الحجاز، ومن هناك انطلق في الآفاق بفضل طلبة الإمام مالك الوافدين عليه من مختلف جهات العالم الإسلامي⁽¹⁾.

أما بالنسبة للمغرب الأقصى، فهناك من يرى أن دخول المذهب المالكي إليه قد تأخر نسبياً عن بقية الأقطار المغربية الأخرى، وأن انتقاله إلى المغرب تم من الأندلس في عهد الأدارسة، كما تفيد بعض الروايات أن مغاربة المغرب الأقصى قبل انخراطهم في المذهب المالكي، كانوا يعملون بمذاهب شتى، حنفية وخارجية ومعتزلة وبرغواطية، وغيرها من المذاهب كالمذهب الأوزاعي⁽²⁾، إلى حين قيام دولة الأدارسة التي تحول المغاربة قاطبة في عهدها إلى مالكية، بسبب المجهود الكبير الذي بذله الملك إدريس الذي دعا الناس للعمل بمذهب مالك، وجعله مذهباً رسمياً للدولة، ويستدل على تبني الملك إدريس للمذهب المالكي بما ذكر عنه أنه قال: "نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه الموطأ"⁽³⁾، وحث ولاته وقضاته على نشر هذا الكتاب على أوسع نطاق والتعريف بمضامينه لفائدة السكان على اختلاف شرائحهم، وهو الكتاب الذي ترى بعض الأخبار التاريخية أنه أول كتاب حديثي نقل في عهد إدريس إلى المغرب، نقله قاضيه عامر بن محمد القيسي الذي سمع

1 - عمر الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 1987م، ص. 18-19.

2 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954م، ج. 1، ص. 136 وما بعدها.

3 - محمد بن جعفر الكتاني، الأزهار العاطرة، الأنفاس، طبعة حجرية، ص. 130 وما بعدها.

من مالك والثوري وروى عنهما مؤلفاتهما وقدم بها إلى المغرب⁽⁴⁾، فسمع منه إدريس وغيره من فقهاء البلاد ما رواه. ثم تعزز المذهب المالكي في المغرب الأقصى بعودة مجموعة من العلماء المغاربة من المشرق، حيث اطلعوا على تعاليم هذا المذهب التي بدأوا يعلمونها للناس، بل هناك من يرى أن بعض المغاربة اتصلوا بالإمام مالك مباشرة وأخذوا عنه.

وإذا كانت هذه هي بعض الخطوط العريضة التي تؤرخ لانتشار المذهب المالكي ببلاد الغرب الإسلامي عموماً، وبلاد المغرب الأقصى على وجه الخصوص، فكيف انتشرت تعاليم هذا المذهب في الصحراء وبلاد السودان؟

لمعالجة هذا الموضوع والإحاطة ببعض جوانبه، قسمناه منهجياً إلى محورين رئيسيين، نتناول في المحور الأول أسباب انتشار المذهب المالكي في الصحراء وما وراءها من بلاد إفريقيا. ونتطرق في الثاني لنجاح الدولة المرابطية في التمكين لنفس المذهب بالصحراء والسودان الغربي.

I - أسباب انتشار المذهب المالكي في الصحراء وما وراءها من بلاد إفريقيا:

سنطرق تحت هذا العنوان للحديث عن سببين بارزين ساهما في تقديرنا، إلى حد كبير في انتشار التعاليم المالكية من بلاد المغرب إلى الصحراء وما وراءها، ويتعلق الأمر بصمود فقهاء مالكية إفريقية في وجه المذاهب المخالفة منذ وقت مبكر، من جهة، وفشل المذهبيين الشيعي والخارجي في التغلغل بين شعوب بلاد السودان، من جهة أخرى.

1 - صمود فقهاء مالكية إفريقية في وجه كل المذاهب منذ وقت مبكر:

إن تحول سكان بلاد المغرب إلى المذهب المالكي بشكل عام، تم بوتيرة بطيئة بعد مراحل من الصمود والمعاناة من قبل فقهاء المذهب تجاه المذاهب الإسلامية الأخرى المنافسة، فبعد محنة قطب المالكية الإمام سحنون (ت 240هـ) مع الأغلبية وفقهائهم الأحناف خلال القرن الثالث الهجري، دخل فقهاء المالكية بإفريقية في القرن الموالي في صراع حاد وعنيف مع الدولة الفاطمية الشيعية، وقد استغل الخلفاء الشيعة وفقهائهم مركز السلطة والهيمنة للاضطهاد والتنكيل بخصومهم سياسياً ومذهبياً، ونقدم فيما يلي بعض الأمثلة من العقوبات والمعاملات المهينة التي لحقت برجال المذهب المالكي على يد خصومهم، سواء في عهد الأغلبية أو في عهد الخلافة الفاطمية.

4 - عمر الجيدي، م. س، ص. 26.

يحدثنا القاضي عياض أن العباس عبد الله بن طالب التميمي (217هـ - 275هـ) امتحن أكثر من مرة وكان السبب في تعذيبه، أنه نظر إلى ما شرعه إبراهيم بن الأغلب من الفسوق والجور والاستطالة على المسلمين، بعين السخط وعدم الرضى، فما كان منه إلا أن عزله وحبسه وأوكله إلى قاضيه ابن عبدون الحنفي الذي سلط عليه السودان فركضوا بطنه، فسال منه الدم غزيرا حتى مات⁽⁵⁾.

وتفيد المصادر أن قاضي إبراهيم بن الأغلب، ابن عبدون الحنفي السابق ذكره، امتحن أيضا الفقيه أبا جعفر أحمد متعب بن أبي الأزهر، ضربه ونكل به، وأدخل رجله في فلقة حتى أدماههما، كما عذب على يده يحيى بن عمر الكندي (ت 289هـ)⁽⁶⁾.

ومن فقهاء المالكية أيضا الذين نكل بهم البهلول بن راشد، وتم هذا التنكيل على يد "العكي" أمير القيروان الذي أمر بتجريده وضربه بالسياط وحبسه⁽⁷⁾.

كما نقرأ في "المدارك" و"رياض النفوس"، أن الإمام سحنون عندما امتنع عن الصلاة خلف القاضي ابن أبي الجواد، وبلغ ذلك الأمير زيادة الله، أمر عامل القيروان أن يضرب سحنونا خمسمائة سوط ويحلق رأسه ولحيته، ولولا أن الوزير تطف وحال دون ذلك لتم تنفيذ هذا الأمر⁽⁸⁾.

وامتحن أيضا، في عهد الأغالبة الفقيه أبو جعفر القصري على يد القاضي الصديني، بدعوى أنه كان ينتقد أبا حنيفة، كما اضطهد وضرب الفقيه أبو جعفر موسى بن معاوية الصمادحي، على يد قاضي القضاة ابن أبي جواد المعتزلي، وغير هؤلاء كثير⁽⁹⁾.

وإذا كان أمراء بني الأغلب، في رأي الدكتور عمر الجيدي قد كفوا أحيانا عن اضطهادهم للمالكية، فإنما كانوا يلجأون إلى ذلك، لا رغبة فيهم أو رحمة بهم ولكن بسبب صمودهم، وخشية من العامة الذين كانوا يقتدون بآرائهم.

وبعد أن خضعت إفريقية للخلافة الفاطمية الشيعية، وقف المالكية من حكامها نفس موقفهم مع الأغالبة فقاطعوهم، ورفضوا طاعتهم باعتبارهم طغاة مارقين، خارجين عن الدين، مما جعل

5 - محمد تميم (أبو العرب)، طبقات علماء إفريقية، باريس، 1915، ص. 228-229.

6 - محمد بن الحارث بن أسد (الحشني)، طبقات علماء إفريقية، ص. 135-136.

7 - عياض موسى اليحصبي السبتي (القاضي عياض)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1983، ج. 3، ص. 98-99.

8 - عبد الله المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، نشره وعلق عليه: حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ص. 285.

9 - عمر الجيدي، م. س، ص. 46.

عبيد الله الشيعي يلجأ إلى محاولة إخضاعهم بالقوة والإذلال واستعمال كل أشكال القسوة والبطش، فما زادهم ذلك إلا إصراراً على موقفهم، يتضح ذلك على سبيل المثال، من تنديدهم بالشيعة جهاراً، ومن كون أحد فقهاءهم وهو الفقيه جبلة بن حمود الصديقي أفتى بأن جهاد الشيعة أفضل من جهاد الشرك⁽¹⁰⁾، باعتبار ما صدر من الفاطميين من مخالفات تتعارض مع تعاليم الشريعة الإسلامية تعارضاً مكشوفاً، عندما أسقطوا الرجم عن المحصنين في الزنا وأسقطوا المسح عن الخفين وحلوا المطلقة ثلاثاً، وأمروا بقطع صلاة التراويح وأحدثوا في الصلاة أموراً لم يألّفها السنيون مثل: القنوت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وسبوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه، باستثناء علي بن أبي طالب⁽¹¹⁾.

من جهة أخرى، نقرأ في كتب التاريخ أن معارضة فقهاء المالكية لدعاة الشيعة اتسمت في بداية الأمر بطابع المناظرة والجدل حول العقيدة، وكانت المناظرات بين الطرفين تتسم بتفوق المالكية على خصومهم، إذ يذكر الخشني أن سعيد بن الحداد ناظر أبا العباس شقيق عبيد الله الشيعي مناظرة القرن المساوي، بل مناظرة المتعزز المتعالي وأفحمه حتى في أدق تفاصيل مذهبه، لم يتلثم لفظاً المقام، ولا أحجم لهية السلطان⁽¹²⁾.

وقد امتد هذا الصراع إلى المغرب الأقصى أيضاً في العصر الموحيدي، فضيق حكامه على فقهاء المالكية وأحرقوا كتبهم كما أحرق المرابطون كتاب "الإحياء" للغزالي، فالخليفة أبو يوسف يعقوب الموحيدي أمر بإحراق كتب المذهب بعد أن جرد ما فيها من حديث وقرآن، ومن كتب المذهب التي التهمتها النيران، مدونة سحنون، وجامع ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد القيرواني، وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب، وهي من أنفس ما ألف في المالكية. ويروي المراكشي في "معجبه" أنه شاهد عند الإحراق كتب الفروع يؤتى منها بالأحمال، فتوضع ويطلق فيها النار⁽¹³⁾. ويبدو أن الحكام الموحيدين من خلال محاربتهم لمذهب مالك كانوا يهدفون إلى حمل الناس على العمل بالمذهب الظاهري.

وإذا كانت الخصومة المذهبية بين المالكية والشيعة بلغت حد التنكيل والاضطهاد والتعذيب والتصفيات الجسدية، ذهب ضحيتها الكثير من فقهاء المالكية، فإن العداء بين الخوارج والمالكية لم

10 - نفسه، ص. 47.

11 - نفسه.

12 - عياض موسى اليحصبي السبتي (القاضي عياض)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، تطوان، 1981-1983، ج. 6، ص. 253-254.

13 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1978، ص. 400.

يصل إلى هذه الدرجة من المكر والبغض والاقتتال، بل ساد نوع من التعايش والتسامح بين الجانبين في كثير من الأحيان.

فصاحب كتاب "الخوارج في بلاد المغرب" يذكر أن مذهب مالك غلب على إفريقية وساد ما عداه من المذاهب الأخرى⁽¹⁴⁾. إلا أن مذهب الخوارج، تسرب إليها بشقيه الصفري والإباضي. ويضيف نفس المصدر أن كتب الطبقات تذكر أن حلقات الصفرية والإباضية كانت تعقد في مساجد إفريقية، بل في جامع القيروان نفسه، ومع ما عرف عن المالكية من تعصب وبغض لمخالفيه، فقد سمحوا للخوارج بممارسة نشاطهم في إفريقية حتى تولى سحنون القضاء فحظر عليهم ذلك وبدد حلقاتهم، ودرج من جاء بعده من قضاة المالكية على اضطهاد الخوارج في إفريقية وإذلالهم⁽¹⁵⁾.

كما حظي المالكية في دول الخوارج بتسامح كبير سمح لبعض شيوخهم بتولي المناصب العامة في تاهرت في آخر حكم بني رستم. ومما يدل على هذا التسامح، حسب محمود إسماعيل، ما يرويه ابن الصغير - وهو مالكي عاصر أئمة بني رستم الأواخر - عن الحرية التامة التي تمتع بها المالكية في ممارسة شعائرهم في كافة مساجد تاهرت فيما عدا المسجد الجامع⁽¹⁶⁾.

هذا التسامح الذي كان حاضرا ومتبادلا بين الطرفين في غالب الأحيان، مرده في تقدير نفس الباحث إلى كون المذهب الإباضي كان أقرب مذاهب الخوارج إلى مذهب أهل السنة، لذلك لم يجد فقهاء القيروان ما يحول دون التحالف مع الإباضية لمناوئة المذهب الشيعي، وقد ظهر هذا الائتلاف بشكل واضح في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، التي شكلت بداية نهاية الدولة الفاطمية في إفريقية خاصة وبلاد المغرب عامة⁽¹⁷⁾.

ولعل واقعية تعاليم المذهب المالكي وتسامحها واستجابتها لكل مظاهر حياة الناس المادية والروحية ببلاد المغرب هي التي شكلت قوة الاستقطاب والانخراط في صفوفها، وسر الصمود في وجه كل التيارات المناوئة.

14 - محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1976، ص. 294.

15 - نفسه.

16 - نفسه.

17 - نفسه.

2 - فشل المذهبيين الشيعي والخارجي في التغلغل بين شعوب بلاد السودان:

من الثابت تاريخياً، طبقاً لما تفيدنا به بعض الدراسات التاريخية أن أبا القاسم سمكو بن واسول أمير سجلماسة، قام بنشر الإسلام على المذهب الصفري بين الجماعات السودانية التي كانت تعمل في نقل التجارة عبر الصحراء، ومعلوم أن الكثير منهم آثروا الاستقرار بسجلماسة بعد إسلامهم. وبفضل بني مدرار، انتشر الإسلام بين قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة وملتونة التي كانت تضرب بنواحي سجلماسة على طول المفازة بينها وبين بلاد غانة، أما الأجزاء الوسطى من بلاد السودان - وهي بلاد كانم - فقد بلغت الدعوة الإسلامية عن طريق تجار بني رستم⁽¹⁸⁾.

وهكذا يمكن القول على حد تعبير الدارس محمود إسماعيل إن الفضل يعزى إلى الخوارج في وضع البذور الأولى لنشر الإسلام في بلاد السودان الواقعة جنوب الصحراء، ذلك أن الجهود التي بذلها عقبة بن نافع الفهري، لم يقدر لها النجاح، كما أن غزوات عبد الرحمن بن حبيب وعبيد الله بن الحبحاب لأطراف بلاد السودان لم تتمخض عن شيء سوى الحصول على الغنائم⁽¹⁹⁾.

أما أسباب فشل المذهب الشيعي في التسرب إلى بلاد السودان الغربي، فيمكن رده إلى الصراعات المذهبية في بلاد المغرب التي شكل الخوارج بها أكبر معارضة للشيعية الفاطميين، كما تشهد على ذلك ثورة أبي يزيد مخلد بن كداد الإباضي سنة 332هـ، التي لم ينج الخليفة الفاطمي منها إلا بفضل وقوف بني زيري إلى جانبه، مما مكنه من القضاء على تلك الثورة سنة 345هـ⁽²⁰⁾.

لم ينحصر عمل الخوارج في بلاد المغرب في مقاومة المذهب الشيعي هناك، بل حاولوا دون انتشاره في اتجاه الجنوب، وتفسير ذلك أنه عندما أجبروا على الفرار نحو الصحراء بفعل ضربات الفاطميين الذين كانوا وراء الإطاحة بحكمهم في سجلماسة وتاهرت، اتخذوا من غدامس وفزان ونفوسة ووركلان وسدراتة ملاجئ آمنة لهم ومستقلة عن النفوذ الفاطمي، مما مكنهم من ربط صلات وثيقة مع الجنوب السوداني. ومما لا شك فيه أن هذا الحزام من المعاقل الخارجية الممتدة على طول الواجهة الشمالية من الصحراء، كان بمثابة سد في وجه المد الشيعي نحو إفريقيا الغربية والسودانية. وهو المذهب الذي فشل، بسبب العوامل المذكورة، في الانتشار في ما وراء الجنوب

18 - مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، الإسكندرية، 1958، ص. 201.

19 - محمود إسماعيل عبد الرزاق، م. س، ص. 299.

20 - عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1992، ج. 4، ص. 49 وما بعدها.

المغربي، وهو فشل ينطبق على كل إفريقيا جنوب الصحراء التي لم يصل هذا المذهب إلى شرقها إلا حديثا على يد جماعة من الباكستانيين والهنود الذين يعتبرون الجالية الشيعية الوحيدة فيها⁽²¹⁾.

وتبعاً لما سبق، يلاحظ أن الخوارج الذين تلقوا ضربة موجعة ببلاد المغرب في العصر الفاطمي خلال القرن الرابع الهجري، عوضوا عن ذلك بحضورهم المكثف والقوي في الغرب الصحراوي والسودان الغربي، إلى حين انتشار التعاليم المالكية في تلك الأصقاع منذ القرن الخامس الهجري⁽²²⁾.

وإذا كان من الصعوبة بمكان الحسم في مسألة من كان له السبق في نشر الإسلام بالسودان الغربي، المذهب السني أم الخارجي، فإن احتكاك الخوارج بالسودان منذ قيام الدولة المدراية بسجلها، وتعامل تجارها مع تجار إفريقيا جنوب الصحراء، مكنهم من نشر تعاليم الإسلام هناك، قبل ظهور المذهب المالكي، دون نشر تعاليم مذهبهم الخارجي، باعتبار أن الإسلام الإباضي البسيط كان همهم الأول الحصول على الأموال الكافية عن طريق التجارة لمواصلة الحرب ضد خصومهم وخصوصاً الشيعة منهم. وحتى ولو حاول الخوارج وفكروا في نشر معتقداتهم في المنطقة السودانية، فإن النجاح لن يحالفهم، باعتبار أن السودانيين من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجريين، لم يكونوا قد استوعبوا بعمق الأركان الخمسة للإسلام ولا يحسنون اللغة العربية كتابة وقراءة، فما بالك باستيعاب الأنساق المذهبية المعقدة كتلك التي يعتنقها الخوارج والشيعة⁽²³⁾.

هذا التطاحن والصدام المذهبي بين المالكية والشيعة والخوارج في بلاد المغرب، خرج منه المذهب المالكي منتصراً في نهاية المطاف بسبب الصمود المستمر للفقهاء المالكية ضد كل أنواع التنكيل، وعلى الخصوص بسبب التخطيط الاستشراقي المحكم لرجالات المذهب⁽²⁴⁾.

وإذا كان المغرب الأقصى يعتبر قلعة المذهب المالكي الصامدة منذ القرون الأولى للهجرة، مما جعل منه مصدراً لهذا المذهب على حد قول الدكتور عبد الهادي التازي، وحاضناً له والحارس

21 - عبد العزيز العلوي، تأثيرات بلاد المغرب على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط: الدين والفكر، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس - فاس، السنة الجامعية 1998-1999، ص. 269.

22 - نفسه.

23 - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي (628-834 هـ/1230-1430 م)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، الرباط، الموسم الجامعي 1990-1991.

24 - نفسه، ص. 150 ما بعدها.

الأمين عليه، إلى درجة أن هذا المذهب صار شعارا من شعارات الدولة المغربية⁽²⁵⁾، وإذا كانت تعاليم هذا المذهب قد انتشرت لتصل إلى الصحراء المغربية وإلى بلاد من أسلم من السودان، فإن الفضل في ذلك يرد إلى الملك إدريس مؤسس دولة الأدارسة، ومن خلالها مدينة فاس وجامع القرويين، باعتباره الملك الذي ساند هذا المذهب⁽²⁶⁾ كما سبقت الإشارة إلى ذلك. دون أن ننسى عمل رجالات المذهب العظام مثل: ميمون بن دراس بن إسماعيل وموسى بن يحيى الصدين وعثمان بن مالك، وخصوصا أبا عمران الفاسي ويحيى بن إبراهيم الكدالي، ووجاج بن زولو اللمطي وعبد الله بن ياسين الذين خططوا وناضلوا من أجل إنجاح الدعوة المرابطية التي انبنى مشروعها الفكري على المذهب المالكي الذي وصلت تعاليمه إلى كل بلاد الصحراء المغربية وبلدان السودان الغربي.

فما هي إذن، قصة انتشار هذا المذهب ووصول إشعاعه إلى الصحراء والسودان الغربي، وما هي المراحل والظروف التي تم فيها ذلك انطلاقا من المغرب الأقصى؟

II - نجاح الدولة المرابطية في التمكين للمذهب المالكي بالصحراء والسودان الغربي:

يشتمل هذا المحور على مبحثين، نتناول في الأول فترة التأسيس، ونتطرق في الثاني لمرحلة النضج والتأليف في المذهب والعمل بمقتضياته.

1 - فترة التأسيس والبناء:

نتساءل في بداية هذا المبحث عن مدى صحة وجود علاقة منظمة بين فقهاء المشرق وفقهاء بلاد المغرب للعمل معا بغية تطوير الشيعة والخوارج من كل الجهات، كما يذهب إلى ذلك المؤرخ عبد الله العروي، الذي يعتقد أن المرابطين كانوا مكملين للمشروع السلجوقي في الغرب الإسلامي⁽²⁷⁾. كما يحق أن نتساءل عن مدى صحة وجود ترابط بين الأشاعرة في المشرق وشبكة الفقهاء المالكيين التي نظرت لحركة المرابطين، أو بمعنى آخر ما منزلة العقيدة الأشعرية من المشروع الفكري المرابطي؟⁽²⁸⁾.

25 - عبد الهادي التازي، المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية، ضمن أعمال ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، المنعقد بفاس أيام 25-26-27-28 أبريل 1980، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1981، ص. 87.

26 - نفسه.

27 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، نشر المركز الثقافي العربي، بيروت، الرباط، 1994، ص. 111 وما بعدها.

28 - حماد الله بن سالم، الإطار الفكري للحركة المرابطية ضمن أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين من 5 إلى 17 أبريل 1996، مجلة مصادر: دفاتر التاريخ الموريتاني، 1999، ص. 41 وما بعدها.

فرغم أن موقف المالكيين كان متشددا في رفض علم الكلام أسوة بالإمام مالك الذي حارب هذا العلم بشدة، خصوصا مسألة الصفات وعلاقتها بالذات، ويأمر بأن نفهم الآيات المتحدثة عن الصفات كما جاءت، لا بمعنى إجرائها على ظاهر النص فحسب، بل يشترط ألا يؤدي ذلك إلى مشابهة الله بالمخلوقات، فإن النفس الأشعري تسرب مع ذلك، كما يرى البعض إلى آراء وكتابات فقهاء المالكية بالقيروان، خصوصا إبان ظهور شيخ الأشاعرة لعهد ببيغداد أبي بكر الباقلاني (ت 404هـ/1013م) الذي انتشرت آراؤه وكتبه وتوزع أتباعه في أمصار الإسلام. وكان من أبرز المتصلين به من بين المالكيين في القيروان، المنظر المراتبي الفقيه أبو عمران الفاسي (ت 430هـ/1038م). فهل انتقلت الأشعرية عبر هذا الفقيه إلى فقهاء المشروع المراتبي؟ أم أن هناك خصوصية في مستوى التلقي المعرفي بين المعنيين إلى جانب عوامل خاصة بحقل الدعوة الأول، حالت دون حضور قوي للأشعرية في الإسلام المراتبي في الصحراء والمغرب؟⁽²⁹⁾

لكن هل يمكن الوثوق بإمكانية انتقال الأشعرية إلى فكر أبي عمران الفاسي لينقلها بدوره إلى أتباعه، أم أن التزام هذا الأخير بالشرعية العباسية ودفاعه عنها، هو ما انتقل إليه من المحمول السياسي لذلك التأثير الأشعري كما يرى البعض؟ غير أن الشيء المؤكد هو أن الفاسي بعد انتقاله من بلده فاس إلى القيروان التقى بالفقيه أبي الحسن القابسي الأشعري العقيدة وأخذ عنه عدة علوم إسلامية وفي مقدمتها علم الأصول طبقا لما أورده القاضي عياض السبتي⁽³⁰⁾، دون أن نعلم مدى تأثره بأشعرية أستاذه هذا، وحتى وإن كان أبو عمران قد عرف الأشعرية وتأثر بها، فليس على يد القابسي ولكن من طريق شيخه الباقلاني ببغداد، علاوة على أن الفاسي لم يظهر آراءه الأشعرية في القيروان، بل ظل ينشر موروث الأصول الذي تلقاه عن الباقلاني، وعلوم الحديث التي درسها على أبي ذر الهروي في مكة⁽³¹⁾.

إن ما يهمننا في هذا العرض ليس أشعرية أبي عمران الفاسي من عدمها، ولكن الدور الكبير الذي لعبه، بصفته فقيها مالكيًا في قيام الدولة المراتبية بالمغرب، بتنسيق مع رجالات آخرين من نفس المذهب الفقهي، مثل يحيى بن إبراهيم الكدالي، ووجاج بن زولو اللمطي ومحمد بن حسن

29 - نفسه، ص. 49.

30 - عياض موسى اليحصبي السبتي (القاضي عياض)، مصدر سابق، تحقيق: أحمد بكير محمود، دار الفكر، بيروت، 1967، ج. 4، ص. 702 وما بعدها.

31 - نفسه، ص. 586 وما بعدها.

الحضرمي⁽³²⁾ وغيرهم. وجلهم عاش في الصحراء المغربية وترعرع فيها، كما يهمننا أن نعرف ما ترتب عن قيام هذه الدولة المؤطرة فكريا بالمذهب المالكي، من انتشار لتعاليم المذهب في الصحراء والسودان. لذلك، نرى من المفيد إبراز دور بعض هذه الرجالات في قيام الدولة المرابطية.

أ. أبو عمران الفاسي (ت 430 هـ):

ما هي الظروف والأسباب التي دعت أبا عمران الفاسي إلى شد الرحال في اتجاه القيروان والمشرق العربي؟ إن أهم استنتاج نخرج به من قراءة المصادر بخصوص هذا الموضوع، هو عدم ارتياحه للوضع السياسي العام بالمغرب. ففي عهده استقل مغراوة الزناتيون عن الأمويين سنة 390هـ/1000 م، وبسطوا نفوذهم تدريجيا ابتداء من فاس حتى سجلماسة وأغمات وتامدولت، مع ما رافق ذلك من صراعات وفوضى واقتتال. هذه الوضعية أثارت أبا عمران الفاسي وغيره من فقهاء المنطقة ودفعتهم إلى التنديد، رغم أن الزناتيين لم يكونوا خصوما من الوجهة الدينية، باعتبارهم أهل سنة في ذلك الوقت. وكان السبب المباشر الذي دفع الفاسي إلى إعلان الثورة ضد الحكام المغراويين ما قام به هؤلاء الحكام من انتهاك لحقوق رعاياهم بعد سلسلة من المجاعات بدأت منذ سنة 380 هـ، واستمرت إلى 462 هـ، مما جعل دعوته تكتسي طابعها السياسي منذ هذا التاريخ⁽³³⁾.

ولعل صاحب "بيوتات فاس" هو الوحيد الذي ربط بين هجرة الفاسي لمدينة فاس، وموقفه السياسي المعارض للحكم المغراوي الذي تسبب في إحداث "البدع والمظالم والمغارم وأخذهم أموال الناس بغير حق..."⁽³⁴⁾. وهكذا يتضح أن دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عرف الفاسي ومن دار في فلكه تعود إلى هذه الظروف التي حتمت عليه الهجرة بعيدا عن البلاد لإعداد ما يلزم من تكوين الرجال وتأطيرهم من أجل تغيير المنكر، في الوقت المناسب. ولعل طبيعة الظروف التي حتمت على الفاسي الهجرة، وتوالي الأحداث والوقائع إلى أن قامت الدولة المرابطية، هي التي جعلت عددا غير قليل من الدارسين يرى أن لقاء الكدالي بأبي عمران الذي أحاله على وجاج بن زولو الذي وقع اختياره على ابن ياسين ليكون فقيه صنهاجة ومرشدها، لم يكن صدفة، بل كان مدروسا ومخططا له⁽³⁵⁾.

32 - أحمد الشكري، م. س، ص. 162 وما بعدها.

33 - حماد الله بن السالم، م. س، ص. 66-67.

34 - مجهول، بيوتات فاس، دار المنصور، الرباط، 1961، ص. 28.

35 - عبد الله العروي، م. س، ص. 112.

ب. يحيى بن إبراهيم الكدالي (ت 440هـ):

هو أمير قبيلة كدالة وباقي قبائل المثلثين في عهده، آلت إليه الزعامة بعد استشهاد ابن تيفات سنة 431هـ، ونصيبه في العلم قليل على ما يبدو. وفي طريق عودته من الحج يلاحظ أن نوع الأسئلة التي طرحها أبو عمران الفاسي على يحيى الكدالي بالقيروان تبعث على الاعتقاد أن شيئاً ما كان يهياً، فالسؤال عن بلد الكدالي وسيرته، وما هو عليه قومه من المذاهب⁽³⁶⁾، يعد سعيًا من الفاسي للتأكد من خصوصية حقل الدعوة المرتقبة، من حيث خلوه من النزاعات المناوئة للمذهب المالكي، فاتضح لأبي عمران ربما، من خلال الحوار بين الطرفين، أن الكدالي كان صحيح النية واليقين، رغم تواضع معارفه الشرعية، وبالتالي فإنه من الممكن في تصور الفاسي الثورة على الأوضاع السياسية والاقتصادية المتهترئة بجمع شمل قبائل صنهاجة المتحدة وقتها في حلف قوي يقوده الكدالي نفسه، فندبه إلى قتال برغواطة ببلاد السوس، وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم⁽³⁷⁾، أي مواجهة التفكك المذهبي في المنطقة وتصحيح الأوضاع التي بسببها خرج الفاسي من موطنه مكرها، ونظرا لبعد الفاسي عن حقل التغيير فقد أحال الأمير الصحراوي على وجاج بن زولو اللمطي⁽³⁸⁾.

ج. وجاج بن زولو اللمطي (ت 445هـ):

كان من أصحاب الرباطات المقامة للجهاد والتعليم فضلا عن أنه كان تلميذا للفاسي وأحد أبرز فقهاء المرابطين، وكان له دور بارز في الحركة المرابطية. وتحدث بعض الأخبار عن أن وجاج هذا انتمى قبل تلمذته للفاسي إلى نظام للمرابطة أسسه فقيه أغماتي يدعى ابن تيسيت⁽³⁹⁾، ولربما ترك ذلك في نفسه أثرا قويا، وهو في ريعان شبابه كما يذكر ذلك صاحب كتاب "القبلة". وقد يكون وجاج توجه بعد انفراط عقد رباط الأغماتيين هذا إلى شيخه أبي عمران، حيث درس عليه في فاس، قبل أن يرجع إلى سوس ليؤسس رباطه الخاص به والذي أطلق عليه "دار المرابطين"⁽⁴⁰⁾، ولعل هذا التأسيس كان المرحلة الأكثر اكتمالا لتقاليد المرابطة بالمغرب الأقصى.

36 - أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: ج. دوسلان، الجزائر، 1857، ص. 165.

37 - نفسه، ص. 100.

38 - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430- 515 هـ/ 1038 - 1121 م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص. 57 وما بعدها.

39 - حماد الله بن سالم، م. س، نقلا عن أحمد التوفيق، مساهمة في تاريخ المجتمع المغربي خلال القرن 19 (إينولتان 1850- 1912)، الرباط، 1983، ص. 57.

40 - علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1961، ص. 123.

- أبو عبيد البكري، م. س، ص. 165.

ولم يقتصر الرباط الجديد على التعبئة للجهاد والمرابطة على تخوم أصحاب البدع، بل ركز على بث العلم ونشر الفضيلة حرصا على تحصين السكان وطلبة الرباط أمام نحل السوس ومذاهبه المنحرفة، مما يعني أن عميد الدار ركز على الإعداد الروحي بإخضاع الملتحقين بالرباط الجديد لنظام "حركي" خاص قوامه اعتياد شظف العيش والصرامة في السلوك والدقة في التعلم وهو أسلوب مكن خريجي الدار مثل ابن ياسين من التعامل مع مجتمعات بدو الصحراء الذين يتأثرون بالسلوك والعمل لا باللسان والجدل⁽⁴¹⁾.

د. عبد الله بن ياسين (451 هـ):

لو لم تكن "دار المرابطين" على الشكل المشار إليه، لما كان هناك داع لأن يستقر في رحابها داعية المرابطين الأول، عبد الله بن ياسين بعد أن عاد من الأندلس وهو يطفح علما⁽⁴²⁾. ولو لم يكن الرباط الجديد قادرا على تخريج دعاة يقومون بأمر الدعوة المخطط لها، لما قال أبو عمران الفاسي لأمر صنهاجة محيلا إياه على وجاج: "إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها صادقا تقيا ورعا لقيني هنا وأخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه، واسمه وجاج بن زولو اللمطي من أهل السوس الأقصى"⁽⁴³⁾.

من جهة أخرى يبدو أن إحساس ابن ياسين بضرورة مواجهة وضعية التفكك في الأندلس والمغرب وهو مشروعه الأول، كان قد تبلور بعد رحلته إلى الأندلس التي دخلها في عهد ملوك الطوائف. وقد يكون ابن ياسين رابط لبعض الوقت على ثغور الأندلس اتباعا لسنة المرابطة ودفاعا عن الإسلام. وأيا كان الأمر، فإن الرحلة الأندلسية من حياة ابن ياسين هي التي أذكت في وعيه ضرورة توحيد صفوف مسلمي المنطقة التي ينتمي إليها بعد عودته إلى المغرب، غير أنه عندما خاب ظنه ولم يجد بغيته بين تلك المجالات القبلية اتجه صوب "دار المرابطين" ليقيم مؤقتا بجانب شيخه وجاج، في انتظار تنفيذ مشروع كان يلوح له في الأفق⁽⁴⁴⁾.

ومما تجدر ملاحظته، أن هؤلاء الأعلام من فقهاء المالكية الذين أتينا على ذكرهم، أو لم نذكرهم، والذين يبدو لنا أنهم شكلوا الدعامة السياسية لقيام الدولة المرابطية، لم يأتوا من فراغ، بل

41 - حماد الله بن سالم، م. س، ص. 71.

42 - ابن عذاري، البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، نشر كولان وبروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 4، ص. 10.

43 - علي بن أبي زرع الفاسي، م. س، ص. 122-123.

44 - حماد الله بن سالم، م. س، ص. 74.

تكونوا ونشأوا وتفقهوا على يد عدد غير قليل من فقهاء المالكية بالمغرب عموما وفاس على وجه الخصوص، بحيث أن المتفحص لكتب التراجم يلاحظ اندراج أبي عمران الفاسي وطلبته ومن تخرجوا عليهم ومعاصري هؤلاء ضمن طبقة من الفقهاء موزعة على مجالات حضرية وقبلية ساهمت بدرجة أو بأخرى في الإعداد للمشروع المرابطي، ثم في إنجاحه فيما بعد.

فبالنسبة لأبي عمران الفاسي الذي يعتبر من أكبر علماء القيروان لعهد لا نجد إشارة إلى دراسته في فاس، رغم أن هذه المدينة قد عرفت فئة من علماء المالكية المرموقين أمثال أبي ميمونة دراس بن إسماعيل (ت 357هـ/968م)⁽⁴⁵⁾، ومن طبقته يرد اسم موسى بن يحيى الصدين (ت 388هـ)⁽⁴⁶⁾ وأصله من فاس. ورغم أن هذه الأسماء قد مهدت للمالكية في فاس، إلا أنها لا تنتمي إلى الطبقة المعنية، لكن هناك مجموعة من الأسماء عاصرت أبا عمران الفاسي فاندرجت في سلك المالكية الممهدة للحركة المرابطية بحكم الروابط التي جمعتها مع فقهاء اتصلوا بأبي عمران بطريق مباشر أو غير مباشر كالأسانيد وما ماثلها⁽⁴⁷⁾.

ولعل ما يستنتجه الدارس من كل هذه المعطيات، هو حضور الفقه المالكي بالمغرب الأقصى انطلاقا من مدينة فاس العاصمة العلمية وجامع القرويين بها، وصولا إلى السوس الأقصى والصحراء حيث نزل رجالات المذهب بكل ثقلهم كما علمنا من أجل تحقيق التغيير والثورة على الأوضاع، وهو ما تأتي لهم بعد قيام الدولة المرابطية التي عمل قادتها على نشر تعاليم الفقه المالكي على امتداد إمبراطوريتهم من جنوب أوربا إلى ما وراء الصحراء المغربية وحتى الأدغال الإفريقية من بلاد السودان الغربي، مع شد الانتباه إلى أن تحقيق هذا المشروع يعود فيه الفضل ليس فقط إلى القادة البارزين، أمثال: أبي عمران الفاسي، ويحيى الكدالي، ووجاج بن زولو اللمطي وعبد الله بن ياسين، بل إلى فقهاء مالكيين آخرين في السوس والصحراء سبقت الإشارة إليهم، ولم تسلط عليهم الأضواء بما فيه الكفاية.

45 - عبد الحميد سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، 1994، ج. 4، ص. 157.

46 - نفسه، ص. 157 وما بعدها.

47 - أورد الباحث حماد الله بن سالم، م. س، ص. 61 وما بعدها، مجموعة من أسماء هؤلاء الفقهاء من بينهم:

- الفقيه عثمان بن مالك وهو زعيم فقهاء المغرب في وقته والمرجح أن أبا عمران درس عليه.

- الأخوان أبو القاسم وسليمان بن عذرا الجزوليان اللذان تتلمذا على وجاج وعاصرا عبد الله بن ياسين.

- أيوب بن محمد الذي كان فقيه المصامدة لعهد.

- لمثاد بن نفير اللمتوني من صنهاجة الصحراء.

- محمد بن الحسن الحضرمي (ت 489 هـ)

فما هي إذن، أهم مظاهر الحضور المالكي بإفريقيا جنوب الصحراء بعد فترة التأسيس والبناء هاته التي تحدثنا عنها انطلاقاً من المغرب الأقصى ؟

2 - مرحلة الانتشار والنضج والتأليف:

مما لا شك فيه أن المذهب المالكي قد شق طريقه إلى الصحراء والسودان⁽⁴⁸⁾ في عهد عبد الله بن ياسين على مرحلتين على الأقل. المرحلة الأولى، قبل توجهه الأول إلى المغرب واستيلاء جيشه على سجلماسة، والمرحلة الثانية، بعد حدث خضوع سجلماسة الأول له. في المرحلة الأولى أي بعدما أسس ابن ياسين رباطه في مصب نهر السنغال كما هو شائع، وشرع يعلم الناس الكتاب والسنة، طبقاً لأحكام المذهب المالكي، تسامع الناس بأخباره وأخبار رباطه، فتوافدوا عليه من كل الجهات والأقاليم⁽⁴⁹⁾. وبما أن حوض نهر السنغال الذي يقع في مصبه الرباط المذكور يعتبر جزءاً من إفريقيا جنوب الصحراء وصلة وصل بين السودان الغربي وصحراء صنهاجة المغربية، فإن بعض أهالي هذه الأقاليم السودانية من المسلمين كانت تقصد ابن ياسين الفقيه المالكي لتفقه في الدين ومعرفة شريعة رب العالمين. أما المرحلة الثانية، فهي التي تؤرخ لإخضاع عبد الله بن ياسين لسجلماسة ودرعة حوالي سنة 446هـ⁽⁵⁰⁾، ولتوصله بخبر الحالة الخطيرة التي توجد عليها الصحراء والسودان التي عاد إليها رفقة الأمير يحيى. وكانت الجهة المهددة هي غانة التي استغل حكامها فرصة تشتت الحلف الصنهاجي، بعد انتقال معظمه إلى الشمال واستشهاد ابن تيفوت، فاستولوا على أودغشت وانتزعوها من لمتونة⁽⁵¹⁾.

اضطر عبد الله بن ياسين إذن، للعودة إلى الصحراء، وكان أهم عمل عسكري وسياسي قام به تجاه غانة وبلاد السودان بصفة عامة هو استرجاعه أودغشت سنة 446هـ⁽⁵²⁾. وكانت هذه العودة مناسبة لتوسيع دائرة انتشار التعاليم المالكية في تخوم الصحراء وما والاها من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء. وعلى الرغم من انتصار المرابطين واسترجاعهم للمدينة نجدهم يتخلون عنها ويتوجهون، مرة أخرى نحو الشمال، قاصدين سجلماسة وسوس وتامسنا. ويبدو أن ابن ياسين قد

48 - عصمت عبد اللطيف دندش، م. س، ص. 79.

49 - نفسه، ص. 81-82-83.

50 - أبو عبيد البكري، م. س، ص. 168 وما بعدها.

51 - نفسه، ص. 159.

52 - نفسه، ص. 168.

خطط للتوجه إلى شمال المغرب لتحقيق حلم شيخه وجاج في القضاء على نحلة البرغواطيين المنحرفة عن الإسلام.

وبما أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فإن أحلام وطموحات ابن ياسين توقفت، بعد وفاته سنة 451هـ⁽⁵³⁾ وهو يقاتل البرغواطيين بمعية قائده العسكري الأمير أبي بكر اللمتوني، بعد معارك طاحنة بين الجانبين. وقد أجمع شيوخ المرابطين بعد هذا الحدث المؤلم على مبايعة أبي بكر بن عمر خليفة لابن ياسين، فتابع الأمير الجديد خط الجهاد الذي كان قد رسمه له الشيخ عبد الله بن ياسين واستمر يقاتل البرغواطيين حتى فرق شملهم وأذعنوا بالطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً⁽⁵⁴⁾.

وتذكر المصادر، أنه بينما كان الأمير أبو بكر بن عمر يفتح عملية التأسيس والبناء لمدينة مراكش، أتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة جدالة على لتونة واشتداد القتال بين الفريقين. وكان هذا الصراع ينطوي على تهديد خطير لحركة المرابطين في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه لمنازلة أعدائهم، كما يبدو أن بلاد السودان المتاخمة لبلاد الملثمين انتهزت هذا الصراع، لمحاولة الانقضاض عليهم⁽⁵⁵⁾. لذلك لم يجد أبو بكر بن عمر بدا من العودة إلى الجنوب ليقضي على هذه الثورات والفتن وتوحيد القبائل والتقريب بينهم أملاً في إعادة السكينة والاستقرار، وإقرار النظام في صحراء صنهاجة⁽⁵⁶⁾.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية، اخترق أبو بكر بن عمر بلاد تادلا وسجلماسة، ثم سار جنوباً إلى مضارب المتنازعين، وتمكن من إزالة أسباب الخلاف بين مختلف الأطراف، ومن إعادة الأمن إلى الصحراء، وحرص على توجيه جهودهم لمحاربة الوثنيين في بلاد السودان ونشر تعاليم المذهب المالكي بين مسلمي تلك الأصقاع. وبما أن مدينة أودغشت كانت عاصمة للملثمين، فإن الأمير أبا بكر أقام بها إلى أن تجمع لديه جيش كبير من قبائلهم، وبهاته الجيوش خرج بنية جهاد الزنوج من السونينكي الخاضعين لمملكة غانة⁽⁵⁷⁾.

وتكاد المصادر التي تطرقت للموضوع أن تجمع على نجاح أبي بكر في إخضاع كثير من بلاد السودان لحكم المرابطين ولتعاليم المذهب الفقهي الذي يؤطروهم ويوجههم، وقد سار الأمير بعيداً

53 - عصمت عبد اللطيف دندش، م. س، ص. 90.

54 - نفسه.

55 - نفسه، ص. 586 وما بعدها. محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب، القاهرة، 1964، ص. 308.
56 - Cornevin (R), Histoire de l'Afrique des origines au 16ème s, Paris, 1962, T1, p. 346.

57 - عصمت عبد اللطيف دندش، م. س، ص. 99- 100 - 101.

في عمله هذا على امتداد مسيرة ثلاثة أشهر، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجيش المرابطي لم يكن يهاجم الكيانات والبلدات المسلمة مثل مملكة التكرور وسلي وغيرهما⁽⁵⁸⁾.

وإذا كان بعض الباحثين يتساءل عن حقيقة الاتجاه الذي سار فيه عمل أبي بكر في السودان، هل تحرك شرقاً أم غرباً، وإلى أي مدى وصل، فإننا نجد من الدارسين من سلط الضوء على هذا الموضوع، فقال بدون تردد: "... إذا كان زحف المالكية على المغرب الصحراوي والمناطق السودانية المجاورة يبدو لنا عادياً بالنظر إلى علاقات المرابطين المختلفة بالمنطقة، فإن الذي يثير الانتباه أكثر هو أن ذلك الزحف توغل بعيداً نحو الصحراء الوسطى والجنوب السوداني"، مضيفاً أن الزهري ذكر في هذا الصدد "أن الجيش المرابطي وصل حتى مدينة تادمكة بمنطقة جنوب الصحراء الوسطى، بعد سبع سنوات فقط من غزو مملكة غانة سنة 469هـ/1076م"⁽⁵⁹⁾.

ويضيف نفس المصدر، أن توغل المرابطين بالسودان الغربي وما رافقه من نشر للمذهب المالكي، كان يشمل أيضاً ملاحقة المذهب الخارجي، بمعنى أن ما قام به المرابطون في الصحراء وبلاد السودان لم يكن سوى امتداد للحرب التي كانوا يخوضونها ضد الخوارج في بلاد المغرب منذ نهاية القرن العاشر الميلادي، ومما سهل على المرابطين مهمتهم أنهم غيروا العقيدة الدينية أو المذهبية في البلاد السودانية التي دخلوها دون المس بالحكام المحليين الذين احتفظوا بسلطتهم مع قبولهم بالتبعية للإمبراطورية المرابطية⁽⁶⁰⁾. وتأسيساً على ما سبق، يمكن أن نخلص إلى القول بأنه في العصر الوسيط صار الغربان الإسلامي والسوداني خاضعين لأول مرة لسلطة مذهبية واحدة، ممثلة في المالكية. ومما يبرز أهمية الحركة المرابطية ومذهبها المالكي في بلاد السودان، أن تراثها الفكري اليوم يعود في جزء كبير منه إلى ذلك الوقت⁽⁶¹⁾.

فما هي إذن، أهم تجليات ومظاهر الأثر المرابطي في الفكر الصحراوي والسوداني؟

إن الحركة المرابطية المؤطرة فكرياً بالمذهب المالكي لعبت بناءً على ما سبق، دوراً أساسياً في نشر الإسلام بالصحراء وبلاد السودان. ومن خلال طلبة عبد الله بن ياسين والإمام الحضرمي على وجه

58 - علي بن أبي زرع الفاسي، م. س، ص. 133 وما بعدها.

59 - عبد العزيز العلوي، م. س، ص. 271.

60 - نفسه.

61 - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1993، ج1، ص. 226 وما بعدها.

الخصوص، استمر الإشعاع الفقهي المالكي للحركة يمارس تأثيره خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وما تلاه من قرون على عهد دولتي مالي وسنغاي أي بين القرن السادس والعاشر الهجريين، وهي فترة زمنية طويلة جعلت المذهب المالكي يتربع على عروش الممالك السودانية طيلة كل هذه الحقبة الزمنية وإلى يومنا هذا، دون أن يشوش عليه أي مذهب آخر، غير سني. وعلى افتراض وجود بقية لمذهب الخوارج في بعض أصقاع بلاد السودان، فإنها لن تستطيع المقاومة أو منافسة التيار المالكي الذي عم الممالك هناك بدعم من حكامها الذين كانوا محاطين ومؤطرين في بلاطاتهم ونظم حكمهم من قبل فقهاء وقضاة مالكيين من السودانيين أنفسهم ومن المغاربة، كما يذكر ذلك العمري وابن بطوطة⁽⁶²⁾. ومرد هذا التمكن المالكي من القلوب حب أهل السودان للإسلام وسيرهم في ركاب الذين جاؤوا به، سيما التجار والفقهاء المغاربة من المالكيين، بل وجد من السودانيين من أصبحوا دعاة مالكيين، يضاف إلى ما سبق كون المذهب المالكي مذهباً عملياً يعتد بالوقائع، ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم، مما يعني أن فقهه عملي أكثر منه نظري، يتماشى مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها، دون تكليف أو تعقيد⁽⁶³⁾.

لقد تعاضم أمر المذهب المالكي بين السودان بفضل جهود الفقهاء المغاربة من المرابطين منذ قيام مملكة مالي، وعنهما ورثته مملكة سنغاي. وإذا كان لنا أن نضرب بعض الأمثلة لمرحلة النضج والتأليف في الفكر المالكي ببلاد السودان، فإن فترة الحكم على عهد مملكة سنغاي، تعتبر فترة نموذجية في هذا الصدد، خلال القرن 16 والربع الأول من القرن 17 الميلاديين، لاعتبارين أساسيين يتعلق الأول بتبني الأمراء الأساكي المالكية مذهباً رسمياً مع الانصياع لفقهاء المذهب الذين تعاضمت مكانتهم فصاروا أهل الحل والعقد⁽⁶⁴⁾، ويرتبط الثاني بتزايد وتيرة التأليف في فقهيات المذهب ودراسة مؤلفاته ومختصراته، بلغت حداً من الجودة والإتقان لافتين للنظر في عهد الفقيه أحمد بابا التمبكتي (ت 1627 م) الذي سنقدمه في هذه الورقة كأنموذج للتأثير المالكي المغربي في الفكر والثقافة السودانيين.

62 - أحمد العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988م، ص. 60.

- محمد بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت، 1980، ص. 68.

63 - عمر الجدي، م. س، ص. 30.

64 - Cissoko (S.M), l'intelligentsia de Tombouctou au 15ème et au 16ème s, Présence africaine, 1969, n° 72, 1er trimestre, pp. 65 - 67.

تذكر بعض المصادر أن سيدي أحمد أبو الوتاد الحنثي التيشيتي هو الذي أتى بمختصر خليل لتشيت⁽⁶⁵⁾ بإقليم شنقيط التابع للمغرب آنذاك. ومن هناك انتقل على ما يبدو إلى منحني نهر النيجر ببلاد السودان، حيث وجد مراكز العلم والمعرفة في هذه الفترة مثل تمبكتو وجني وكاو. وفي هذه الأقاليم من بلاد السودان، سجل الفقيه محمود بن عمر أقيت حضورا علميا قويا في الفقه المالكي، إذ يعتبر الشخصية الأساسية التي كانت وراء انتشار تدريس مختصر خليل وباقي أمهات المصنفات المالكية، وهذا ما تؤكد الأسانيد العلمية المعتمدة من شيوخ المذهب ببلاد السودان⁽⁶⁶⁾.

أما أحمد بابا فقد درس مختصر خليل بطرق متعددة، توصل كلها إلى القاضي محمود بن عمر، وقد جاء اهتمام أحمد بابا بدراسة هذا المختصر في إطار تدرج التأليف السوداني حول نفس المختصر، من التعليق على مواضيع معينة من متن خليل، إلى تتبع هفوات بعض المؤلفين كالتتائي، وتقييدها في طرر أو شروح صغيرة، ثم ما فتئت التأليف الفقهية السودانية أن بلغت مستوى الشروح الكبرى التي اعتمدت في المقررات الدراسية وفي التداول بين العلماء والمختصين الذين نقلوا عنها⁽⁶⁷⁾.

وتطورت عناية فقهاء سنكري بمختصر خليل، فألفوا تقايد وطررا عليه، كما فعل محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي⁽⁶⁸⁾. ومن وضع عليه الحواشي والشروح، أحمد بن محمد بن سعيد سبط الفقيه محمود بن عمر، والفقيه صالح بن محمد بن عمر المعروف بصالح تكن، والنجيب بن محمد بن شمس الدين التكداوي الانصمني⁽⁶⁹⁾.

وهكذا، فمن مجرد التعليق على مواضيع من المختصر، أو تصحيح أو استدراك مؤلفات الغير، إلى شرح المتن في شروح كبيرة وأخرى متوسطة، وقد بلغت ثقة السودانيين في مؤلفاتهم مبلغا جعل أحمد بابا يدعي أن شرحه الموسوم بمنن الرب الجليل، يغني عما سواه من الشروح المنجزة حتى زمانه، وقد اعتمد أحمد بابا في متنه عدة شروح من بينها⁽⁷⁰⁾:

65 - محمد البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص. 41.

66 - أحمد بابا التمبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباح، دراسة وتحقيق: محمد مطيع، دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987، ص. 439.

67 - سعيد سامي، العلماء ومجتمع السودان الغربي خلال العصر الأسكي (1493-1591 م)، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، السنة الجامعية 2000-2001، ص. 527.

68 - عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، نشر: هوداس، باريس، 1998، ص. 40.

69 - أحمد بابا التمبكتي، كفاية المحتاج، م. س، ص. 445.

70 - سعيد سامي، م. س، ص. 528-529.

- توضيح الشيخ خليل (ت 776هـ).
- الشرح الكبير والأوسط والصغير لبرهام (734-805هـ).
- شرح ابن عرفة (716-803هـ).
- شرح ابن مرزوق (766-842هـ).
- شرح ابن غازي (841-919هـ).
- شرح الخطاب (902-954هـ).

وهكذا فالمتتبع لمتن أحمد بابا يجده متنوع المصادر ومتعدد المشارب، وهي تعود في مجملها إلى مدرسة الفقه المالكي في الغرب الإسلامي، مما يؤكد تثبيت فقيها بالمذهب وشيوخه. ومما يسترعي الانتباه بخصوص عمل أحمد بابا هذا (المنن)، أن صاحبه كان أكثر اطلاعا من جده محمود بن عمر. باعتبار اعتماد الأول (أحمد بابا) على ترسانة من المصادر المالكية، ومؤلفات اللغة، وتفسير القرآن الكريم وصحاح الحديث وكل ما يستلزمه التحليل الفقهي، بينما اكتفى الثاني (الجد) بتدوين تقايد فقط على مختصر خليل في بداية القرن 16، لأن مشروع الإصلاح الفكري والمجتمعي المؤطر بالمالكية كان لازال يخطو خطواته الأولى برعاية السلطة الأسكية⁽⁷¹⁾.

ومما لا شك فيه أن أحمد بابا قد استفاد من التراكمات المعرفية التي توفرت لشيوخه، ومن خزانة آل أقيت بجني وتمبكتو، ومن إقامته بالمغرب حيث اطلع على نفائس خزانة جامع الشرفاء بمراكش⁽⁷²⁾، ولقد أراد أحمد بابا برجوعه لجل رجالات المذهب ممن ذكرنا أسماءهم أو عناوين مؤلفاتهم، أن يمنح لنصه معاني البعد التاريخي وهو يستشهد برجال المذهب الفحول الذين يضع أقوالهم في سياقات تاريخية جديدة تنتقل من الخاص إلى العام ومن المحلي إلى العالمي. ومن الواضح أن هذه الأبعاد وتلك الشمولية هي التي تميز عمل أحمد بابا عن جده محمود بن عمر.

إن طريقة التناول والتأليف المبتكرة في أعمال أحمد بابا، مقارنة مع سابقيه من شيوخ وفقهاء السودان، يمكن ملاحظتها والوقوف عليها بشكل خاص في كتبه التالية:

71 - نفسه، ص. 545-546.

72 - يوسف فضل حسن، الفقيه أحمد بابا ودوره في كتابة التاريخ الإفريقي، ضمن أعمال ندوة: أحمد بابا التمبكتي، التي نظمتها إيسيسكو بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته، من 2 إلى 5 شتنبر 1991، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، 1993، ص. 34-35-36.

- ممن الرب الجليل في بيان مهمات الشيخ خليل⁽⁷³⁾ (مخطوط).
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج.

فهو يتمثل ويمجد من خلالها التاريخ الثقافي الإسلامي لبلاده، ويحث الطلبة السودانيين بواسطتها على الاقتداء بسير وأعمال مؤلفات المالكيين. لذلك، يمكن القول أن هذه الأعمال على الخصوص وغيرها من مؤلفات أحمد بابا، تعكس فهم هذا الفقيه السوداني للتاريخ والفكر ولأدوار الدين والعلماء في تشكيل الذهنية العامة ببلاد السودان الغربي وبكل الأقطار الإسلامية.

ومما يدل على تمازج وتلاقح الثقافتين المغربية والسودانية بخصوص الفقه المالكي⁽⁷⁴⁾، أن مؤلفات أحمد بابا وجده محمود بن عمر لم تقتصر فائدتها على الطلبة السودانيين فقط، بل عمت نظراءهم المغاربة. فأحمد بابا، على سبيل المثال، وهو بالمغرب، كان يضع نصوصا من المن رهن أشهر فقهاء مراکش فيعتمدونها في دروسهم. كما نجد أحمد بن محمد الدرعي التمكروتي الناصري يجعل مؤلف أحد السودانيين على خليل ضمن الكتب المدرسية في بلدته⁽⁷⁵⁾ (تمكروت)، وهو المؤلف الذي تنسبه نسخة الخزانة الحسنية إلى الفقيه القاضي محمود بن عمر (ت 868هـ). كما توجد نسخ متعددة من تقايد هذا الأخير على مختصر خليل بخزائن تمكروت والخزانتين الحسنية والوطنية بالرباط وخزانة المسجد الأعظم بمكناس، وخزانة القرويين بفاس، مما يوضح سعة انتشار هذا المؤلف. ومما يبرز أيضا أهمية التمازج والتكامل في الفكر المالكي بين السودان والمغرب الأقصى، أن مؤلفا كـ "ممن الرب الجليل"، نقل عنه عدد غير قليل من العلماء المغاربة وأثبتوا ذلك في شروحهم، ومن بينهم⁽⁷⁶⁾:

- الرهوني في حاشيته على الزرقاني.
- محمد المدني في حاشيته على كنون المطبوعة بهامش حاشية الرهوني على الزرقاني.

73 - للمزيد من الاطلاع على مضمون هذا المخطوط، يمكن الرجوع إلى عمل الباحث سعيد سامي الذي نال به دكتوراه الدولة في التاريخ والذي استفدنا منه في تحرير هذا المقال وأحلنا عليه أكثر من مرة.

74 - حول هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى أعمال ندوة الإيسيسكو المشار إليها أعلاه، فهي تتضمن معلومات قيمة بخصوص أحمد بابا وموسوعية معرفته وتأثيره وتأثره بالعلماء المغاربة.

75 - محمد بوطالب، نوازل تربوية: التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص. 93 إلى 99.

76 - سعيد سامي، م. س، ص. 549-550.

- محمد بن أحمد الفيلاي الشنقيطي في كتابه: مطالع الأنوار على هتك ما في المختصر من الأسرار (مخطوط).

ومما يؤكد القيمة العلمية لمؤلفات أحمد بابا ويثمنها، شهادة الشيخ المختار الكنتي في حقها والذي يعتبر محمد بغيغ مجدد الحديث، وأحمد بابا مجدد الفقه في القرن 11 هـ⁽⁷⁷⁾.

يتضح مما سبق، كخلاصة أن السودانيين قد أنتجوا معرفة فقهية مالكية كان أحمد بابا أحد روادها الكبار، فانتسج مجال تداولها ليشمل بلاد المغرب عموما والمغرب الأقصى على وجه الخصوص، فضلا عن جوامع ومساجد السودان الغربي وهي المعرفة التي عكست اتساع معارف الفقهاء السودانيين الذين أصبحوا على نفس مرتبة نظرائهم المغاربة. وقد كان تداول معرفة أحمد بابا الفقهية ومعارف غيره من الفقهاء السودانيين من لدن الطلبة المحليين يساهم في نشرها حيثما حل وارتحل هؤلاء الطلبة بمختلف أقاليم بلاد السودان، ومن ثم فإن الحصيلة الثقافية في موضوع الفقه المالكي خلال العصر الأسكي والعقود التي تلتها شكلت منعطفًا حاسمًا في تاريخ الثقافة الإسلامية بهذه الجهات من العالم الإسلامي، وهو ما ستمت الاستفادة منه في الفترات اللاحقة، عندما سيتعزز هذا التراث الفقهي بكتابات ومؤلفات صوفية مغربية على الخصوص دعمت عمق تشبث السودانيين بالإسلام والتصوف السنيين.

ونود أن نشير في نهاية هذا العرض إلى أن تعلق السودانيين بالمذهب المالكي لم يمنعهم من التسامح مع أصحاب المذاهب الأخرى، وهذا يعني أن أرض السودان الغربي أرض للتساكن والتعايش بين السودان والبيضان وبين الأرواحية والإسلام، وهي قيم وخصال وسجايا حملتها تعاليم فقه الإمام مالك إلى الأمصار السودانية على يد فقهاء المغرب الأقصى المخلصين للمذهب، نهلوا من حياض العلم والمعرفة بجامع القرويين وهي الجامعة التي قصدها عدد من الفقهاء والطلبة السودانيين لتعميق معرفتهم في الثقافة الإسلامية عموما والفقه المالكي على وجه الخصوص⁽⁷⁸⁾.

77 - عبد الرحمن محمد ميغا، أحمد بابا التمبكتي وجهوده في الفقه المالكي، دبلوم الدراسات العليا، دار الحديث الحسنية، الرباط، 1999-2000، ص. 370، هـ 1.

78 - أحمد الشكري، م. س، ص. 290.

بيعة أهالي تنبكت لمولاي الحسن الأول من خلال وثيقتين رسميتين: محاولة دراسة وتحليل

د.ة. زوليخة بنرمضان
جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء -
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - المحمدية

ينطوي مجموع الوثائق الملكية المنشورة خلال السنوات الأخيرة بعناية مديرية الوثائق الملكية¹ على وثيقتين هامتين وصلتا لأول مرة إلى أيدي الباحثين، تكمن أهميتهما - أولا - في تحيين مرجعيات البحث التاريخي المرتبط بتاريخ الامتداد السياسي للمغرب بالسودان الغربي خلال الربع الأخير من القرن 19، وبالوضع السياسي للحوض الأوسط للنيجر عامة، ثم في مراجعة بعض الطروحات القديمة المقدمة بخصوص هذه القضايا. فالوثيقتان هما عبارة عن رسالتين تتعلق موضوعهما ببيعة حكام المدينة من نسل رماة الجيش السعودي للدولة المغربية أيام حكم السلطان مولاي الحسن.

فما هو الجديد الذي أضافته هاتان الوثيقتان على مستوى امتداد التأثير السياسي للمغرب في تنبكت خلال هذه الفترة؟ وما هو المشهد السياسي الذي رسمته للحوض الأوسط النيجري في نهاية القرن 19؟

هذا ما نأمل استخلاصه من خلال تحليلنا للوثيقتين كل واحدة على حدة.

1 - سهرت على نشر هذه الوثائق الدكتورة بهيجة سيمو مديرة مديرية الوثائق الملكية بالرباط تحت عنوان "الوثائق الصحراوية من خلال الوثائق الملكية" في ثلاثة أجزاء سنة 2012.

أولا : الوثيقة الأولى مؤرخة في 6 جمادى الأولى 1302 / 21 فبراير 1885

صدرت الرسالة عن القائد أحمد بن محمد التمرقي إلى السلطان مولاي الحسن بتاريخ 6 جمادى الأولى 1302 / 21 فبراير 1885، وما يهمننا في هذه المراسلة أخبار مدينة تنبكت بحيث جاء فيها:

"... وقد رأينا بعض آل تجكنت²، جاءوا من السودان، في تنبكت وذكروا لنا أن النصراني بابوره جاء ورس في تنبكت وأراد البيع والشراء، فمنعوه وقالوا له إن أردت فاذهب إلى السلطان الذي هو أمير المؤمنين سيدنا حسن، يأذن لك أو يمنعك. وقام وذهب. ونحن عبيد سيدنا وخدمه، وكنا عند أمره ونهيه ومتابعته. وأكون في بال سيدنا بعين الرضى، والسلام في تاريخ 6 جمادى الأولى عام 1302. خديم سيدنا ومولانا الحاج أحمد التمرقي آمنه الله بمنه أمين"³.

تنطوي الرسالة على أمرين هامين، أولهما يتعلق بتجديد بيعة أهالي تنبكت للإيالة المغربية في عهد السلطان مولاي الحسن، أما الثاني فيتعلق بتاريخ أولى المحاولات الأوربية المتاجرة مع أهالي تنبكت عبر النهر، أو بالأحرى أولى الرحلات الرسمية الكشفية الأوربية لتنبكت عبر مياه النيجر قبل رحلة كارون، خلافا لما هو معروف لدينا.

أ - تجديد بيعة أعيان تنبكت للسلطان مولاي الحسن

إن تجديد بيعة أهالي تنبكت للسلطان مولاي الحسن تم - من دون شك - بموجب عقد بيعة قديم يعود في الأصل إلى الحملة السعدية على بلاد السودان؛ فقد سجل صاحب تذكرة النسيان أن الخطبة للملوك السعديين امتدت زهاء ثمانية عقود، ولم تتوقف إلا في سنة 1070هـ / 1660م على خلفية تمرد كاهية فرقة المراكشيين محمد بن عبد الله الشتوكي، الذي أعلن نفسه سلطانا أيام حكم الباشا حم بن عبد الله العلجي⁴، الأمر الذي استغله هذا الأخير لإعلان الاستقلال السياسي للباشوية عن سلطة المخزن السعدي بأن جعل خطبة الجمعة تتم باسمه⁵.

2 - نسبة إلى تجكانت أو تجكنت إحدى الفروع لقبيلة مسوفة الصنهاجية وتنتشر مواطنها بين وادي درعة شمالا وتاودني جنوبا عبر تيندوف وتغازي. ناعمي (مصطفى)، «تجكانت»، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1415 / 1995، مجلد 7، ص. 2286.

3 - سيمو (بهيجة)، الصحراء المغربية من خلال الوثائق الملكية، القسم الأول، الجزء الأول، منشورات مديرية الوثائق الملكية، 2012، ص. 286-287.

4 - تذكرة النسيان، تحقيق هوداس، باريس، 1966، ص. 90.

5 - نفسه.

بيد أن هذا الانفصال عن الدولة المغربية الأم لم يستمر طويلا؛ ذلك أن زعماء الدولة العلوية الشريفة الصاعدة تمكنوا في ظرف وجيز جدا - وقبل القضاء على كل خصومهم - من استعادة مكاسبهم في السودان الغربي، وخصوصا في تنبكت حيث عاود الباشوات الاعتراف بالسيادة المغربية. ولعل أول من مهد لها السلطان مولاي الرشيد (ت. 1082هـ/ 1672م) عبر توطيد سلطته في المحطات الصحراوية الكبرى، كتوات انطلاقا من سنة 1643⁶، قبل دخوله إلى فاس سنة 1076هـ/ 1665-1666م⁷، ومراكش سنة 1079هـ/ 1668م⁸.

بيد أن سياسته السودانية لم تتضح بشكل جلي، إلا بعد تحطيمه لزاوية إلغ في مستهل ربيع الأول من سنة 1081هـ/ 1670⁹؛ إذ تمكن من وضع يده على جميع الطرق الصحراوية. وفي السنة الموالية أرسل مرسوله إلى تنبكت حيث جدد الرماة زمن حكم الباشا ناصر بن عبد الله الأعمشي الدرعي ولاءهم للملوك المغرب، وذلك بتاريخ فاتح جمادى الأولى 1081/ 17 سبتمبر 1670¹⁰، الأمر الذي يوافق ما جاء به الأسير الفرنسي جرمان مويط (Germain Mouët) في مؤلفه من أن غزوات السلطان مولاي الرشيد امتدت إلى تخوم بلاد السودان¹¹، مما يجعل من الحدث أمرا واقعا وليس من ابتكار الأسير الأوربي كما يعتقد زميلي الدكتور حسن أميلي مترجم الكتاب¹².

وبعد وفاته، وطد خليفته السلطان مولاي إسماعيل (1082- 1139هـ/ 1672 - 1727 م) روابط البيعة بين رماة تنبكت والدولة المغربية عبر سلسلة من الحملات العسكرية التي أنفذها، والتي وصلت إلى ضفاف نهر السنغال والحوض الأوسط لنهر النيجر. كما كانت له مراسلات مع باشوات المدينة، من ذلك رسالته التي أرسلها سنة 1100هـ/ 1689 - 1690م عن طريق نائبه في تاودني إلى الرماة لإشراكهم في غمرة أفراحه على خلفية تحرير مدينة العرائش. كما شكرهم فيها على الضريبة التي

6 - الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتب، البيضاء، 1956، ج. 7، ص. 16. انظر أيضا :

ABITBOL (M), Tombouktou et les Arma, Ed. Maisonneuve et Larose, Paris, 1979, p. 104.

7 - الناصري، المصدر السابق، ج. 7، ص. 34.

8 - نفسه، ص. 38.

9 - الناصري، المصدر السابق، ج. 7، ص. 40.

10 - "تذكرة النسيان..."، المصدر السابق، ص. 158.

11 - مويط (جيرمان)، المغرب في مطلع العهد العلوي (1659- 1682) تاريخ مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل، ترجمة حسن أميلي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2015، ص. 62.

12 - مويط (جيرمان)، المصدر السابق، ص. 62، إحالة. رقم 1.

رضوا بتأديتها لحزينة السلطان، ونوه بعودتهم المحموددة إلى الجماعة الإسلامية، وقبولهم تلاوة الخطبة باسمه على منابر المساجد¹³.

غير أن العلاقات بين الطرفين سرعان ما عرفت بعض الفتور بسبب استعجال السلطان في استخلاص ضريبة أخرى من الرماة قبل انقضاء السنة الجارية، وخصوصا أثناء محاولته المشاركة في التجارة الصحراوية ببضائع قدرت قيمتها ب 1000 مثقال، بواسطة وكيل له من قبيلة تجكانت يقوم بذلك لحسابه. إلا أن السلطان تدارك هذا الانزلاق بأن أرسل من شرح لهم حسن نواياه في محاربة الكفار، وحماية بلاد المخزن الممتد إلى نهر النيجر من خطرهم. كما أبان عن استعداده لتزويدهم بفرق من الجند إن رغبوا في ذلك، على أن يتحملوا نفقاته¹⁴. وليس من المستبعد أن يكون السلطان مولاي إسماعيل هو المقصود عند دلمونت (Th. DELMONT) في حديثه عن سقوط تنبكت بيد "إمبراطور مغربي" حوالي نهاية القرن 17م، وتطور التجارة بها في عهده، وإن أخطأ في قوله بأنه أخذها من يد البمبر المحتلين للمدينة¹⁵.

وبينما حصر المولى إسماعيل تحركاته العسكرية في المناطق الصحراوية الممتدة إلى نهر السنغال لتهدئة الأوضاع المضطربة وإعادة السلم بين القبائل المتصارعة¹⁶، عرف التواصل بين المخزن المغربي وباشوات تنبكت نوعا من الانقطاع، ويجب انتظار سنة 1121هـ/ 1709م لتعود العلاقات من جديد بين رماة تنبكت والدولة المغربية؛ ففي نفس السنة، وفد - حسب صاحب التذكرة - على الباشا محمد بن كبر فرم عبد الرحمن بن علي بن مبارك الدرعي مبعوث من السلطان مولاي إسماعيل، فاحتفي به احتفاء كبيرا؛ إذ "عمل له ملعب كبير، ومحشر كثير، وبعث لكل من كان قريب لبلدنا تنبكت من إقليم الساحل البحر، وكل من في الجزائر من كل جهة من الجهات الأربع، وجمع الناس للمعبه جدا، حتى الزغرانيين والفلايين، وكل من في طاعتهم من قبائل شتى وبلاد شتى قد جاءوا كلهم في تلك العشية، وركب معهم ومعه مرسول السلطان، وقيل إنه مرسول قائد من قياد السلطان وطافوا البلد ودخلوا بالسلامة، ثم صافته بالهدايا إلى السلطان"¹⁷.

لقد أعقب هذه الزيارة إرسال موفدين آخرين من قبل السلطان، تزامن وصولهم مع المرحلة الثانية من حكم الباشا منصور بن مسعود بن منصور الزعري (1128 - 1131هـ/ 1716 - 1719م)، مما

13 - انظر نص الرسالة مترجما إلى الفرنسية في ملاحق كتاب : ABITBOL (M), op. , cit, p.247- 249.

14 - ABITBOL (M), op. , cit, p. 109.

15 - DELMONT (Th), La France Noire et Tombouctou, Aurillac, Imp. H. Gentet, Aurillac, 1894, p 12.

16 - MARTY (P), L'Emirat des Trarzas, Ed. Ernest-Leroux, Paris, 1919, p.69.

17 - "تذكرة النسيان..."، المصدر السابق، ص. 95.

برهن على الأهمية التي أولاها السلطان مولاي إسماعيل لمدينة تنبكت¹⁸. وفي أواسط شهر الربيع النبوي سنة 1151/ يونيو 1738، يحدثنا صاحب (التذكرة) عن الضجة التي أحدثها نبأ اقتراب وصول جيش مغربي إلى تنبكت، من ذلك إسراع الباشا أحمد بن الفع منصور بن القائد محمد بن علي المبارك الدرعي إلى استدعاء التجار الذين فرض عليهم غرامة ألف مثقال ذهباً¹⁹. ولا ندري في الواقع إن كان لهذا الحدث علاقة بالحملة التي انطلقت سنة 1730م بقيادة الضابط الإنجليزي طوماس بيلاو (Thomas Pellow) الذي كان في خدمة السلطان مولاي إسماعيل وابنه مولاي عبد الله، والمؤلفة من ثلاثين ألف جندي، والتي وصلت إلى بلاد غينيا عبر وادي النول وبلاد شنقيط²⁰.

وفي جميع الأحوال، يبدو أن جنود السلطان مولاي إسماعيل بلغوا بالفعل مدينة رأس الماء عند بحيرة ديبو، مجالات طوارق كتوان، حيث سجل صاحب التذكرة نشوب حرب بين هؤلاء الأواخر ومن دخل في حزبهم من العرب والفلولان (الفولبي)، وبين جيش السلطان مولاي إسماعيل، وقد انتهت المعركة بمقتل الجيش السلطاني وتفريق جمعه²¹.

بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل، دخل المغرب مرة أخرى عهداً من الفتن والاضطرابات لم تكن أقل ضراوة من التي شهدتها البلاد بعد وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي. ويبدو أنه بالرغم من هذه الأوضاع المتردية، ظل رماة تنبكت يعترفون بالتبعية للملوك الذين تداولوا على حكم المغرب، بل - بحسب جاكسون (J. C. Jackson) - قد يكون الباشوات حافظوا على وعدهم في دفع ضريبة التبعية إلى خلفاء المولى إسماعيل. نفس الشيء تفيد به وثائق ديبلوماسية مغربية وأجنبية، من ذلك ما أفاد به مور (G. Moore) سنة 1738 - نقلاً عن سفير مغربي في لندن - من أن تنبكت كانت تابعة للدولة المغربية²².

أما من الجانب السوداني، فتقر المصادر المحلية أن أمراء من الأسرة العلوية حاولوا استثمار علاقة التبعية التاريخية التنبكتية للدولة العلوية لمصلحتهم الخاصة، من ذلك يرد اسم الأمير مولاي عبد الله بن الناصر، حفيد مولاي إسماعيل، الذي كان يقطن مدينة ولاتة، والذي زار مدينتي تنبكت

18 - نفسه، ص. 19.

19 - نفسه، ص. 116 - 117.

20 - ABITBOL (M), op. cit, p. 146- 147.

21 - "تذكرة النسيان..."، المصدر السابق، ص. 74 ؛ ABITBOL (M), op. cit, p. 147.

22 - ABITBOL (M), op. cit, p. 222.

وجني أربع مرات على الأقل خلال الفترة الممتدة ما بين 1146 و 1153 هـ (1730 - 1740 م)²³. وفي شهر الربيع النبوي من سنة 1149 هـ (1736-1737 م)، حصد الضريبة السنوية التي اعتاد باشوات تنبكت دفعها لخزينة المخزن العلوي²⁴.

وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (ت. 1204 هـ / 1790 م)، عرفت سياسة المغرب السودانية انطلاقة جديدة؛ لقد أفادت الوثائق الدبلوماسية التي حصل عليها أبيتبول (M. Abitbol) امتداد بيعة باشوات تنبكت للدولة المغربية خلال هذه الفترة من خلال عبارة "ملك فاس ومراكش [...] وجاو وغينيا" الواردة في المراسلات المخزنية²⁵. ومما يزكي أيضا هذه الأطروحة شهادة البريطاني ماترا (G. Matra) الذي اشتغل قنصلا في المغرب ما بين 1786 و 1806، والتي أفادت بأن خطبة الجمعة كانت تتم باسم السلطان المغربي في مساجد تنبكت²⁶. ولم تختلف هذه الشهادة عما تضمنته وثيقة سودانية فجر قيام الحركة الجهادية التي تزعمها الشيخو أحمدو الفولاني (الفولبي)؛ ذلك أنه صدرت عن هذا الأخير مجموعة رسائل إلى ملوك الإسلام في الشرق والغرب، تهمنا منها الرسالة التي بعث بها إلى ملك المغرب، وهي من كتابة ألفا نوح بن الطاهر، لأهميتها في وضع خريطة جيوسياسية للمغرب أيام السلطان «سيدي محمد بن عبد الله، بحيث جاء فيها:

"سلطان الغرب وفاس ومراكش وممتلكاته في تنبكت وأروان وبو جبيه وتاودني والسوس الأدنى والسوس الأقصى وكذلك توات"²⁷.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن تنبكت شهدت ما بين منتصف القرن 18 وسنة 1825-1826، تاريخ احتلالها من طرف الشيخو أحمدو زعيم مسينا، وصول إحدى عشر باشا إلى السلطة، تخللتها فترة فراغ سياسي لمدة 19 سنة امتدت من سنة 1775 - تاريخ وفاة الباشا با حدو بن بوبكر بن مبارك الدرعي - إلى سنة 1794، من دون أن يؤثر هذا الفراغ على الأوضاع الداخلية؛ إذ ظلت الدواوين تسير بحسب التقاليد الإدارية للباشوية. وفي سنة 1794 اجتمعتا فرقنا فاس ومراكش واتفقتا على تعيين مصطفى التزركيني باشا على المدينة، ثم خلفه القائد أبو بكر بن أحمد بن مبارك الدرعي. وبعد

23 - "تذكرة النسيان..."، المصدر السابق، ص. 65، ص. 69، ص. 72، ص. 152.

24 - نفسه، ص. 65.

25 - ABITBOL (M) , op. cit, p. 223, nn°10.

26 - Ibid, p. 224.

27 - Ibid .

وفاة هذا الأخير سنة 1815، أصبحت السلطة وراثية توالى عليها من بعده ولداه، أولهما محمد، ومن بعده عثمان الذي يعد آخر باشاوات تنبكت خلال هذه الفترة، وقد استمر حكمه لها إلى حين سقوطها في يد جيش الشيخو أحمدو سنة 1825-1826²⁸.

واستنادا إلى المصادر الأوربية، يمكن تسجيل أن الأوضاع الأمنية في الحوض النيجري خلال النصف الأول من القرن 19 إلى حدود التدخل الأوربي في الحوض الأوسط النيجري كانت متدهورة؛ ذلك أن التوسع العسكري لفولاني مسينا في المنطقة فسخ المجال للطوارق للظهور على المشهد السياسي السوداني بسبب الاختلافات حول الزعامة بين فروعها القبلية، ثم كمعارضين للاحتلال الفولاني، من خلال غاراتهم المتعددة على مدن حوض النيجر الأوسط، وخصوصا مضايقاتهم للتجار الوافدين على تنبكت بفرض غرامات عليهم مقابل حرية التنقل، مما أضر باقتصاد المدينة، وبساكنتها والوافدين عليها²⁹.

وبناء على ما تقدم، يمكن القول إن تجديد البيعة المشار إليها في الوثيقة المذكورة، أتت بعد ظرفية تاريخية عصيبة مر بها الحوض النيجري عامة ومدينة تنبكت خاصة، امتدت من سنة 1834 التي تؤرخ لهزيمة باشاوات تنبكت في معركة ديري بعد تمردهم على الشيخو أحمدو الفولاني زعيم مسينا، ونهاية حكمهم بها، إلى غاية سنة 1844 التي تسجل طرد الطوارق للفولانيين من المدينة، تلاها بعد سنتين توقيع معاهدة بين الكونتيتين والفولانيين، أصبحت المدينة بموجبها تتمتع بإدارة مدنية يديران شؤونها قاضيان، أحدهما كونتي، والثاني صنغائي³⁰. وفي سنة 1864، يؤرخ عودة الرماة إلى حكم تنبكت عقب هزيمة الحاج عمر التكروري، المحتل الجديد للمنطقة، في موقعة باندياجارا، وتسليم السلطة للكاھيا إبراهيم، أحد الرماة المنحدرين من أسرة الزعري³¹.

وبالرغم من أن المنطقة ظلت تحت تأثير كل من الفولانيين والكونتيتين والطوارق بحسب ما يفيدته الرحالة النمساوي لانز (O. Lenz) الذي زار المدينة سنة 1881³²، نميل إلى الاعتقاد بأن الرماة

28 - Ibid, p. 225.

29 - CAILLE (R), Voyage d'un faux musulman à travers l'Afrique, Limoges, Ed. Bugène Ardant et Cle, 1885, p. 120 ; TRESCALY (M), Lieutenant Palat. Journal de route et correspondance, Paris, 1886, p. 71 ; BARTH (H), Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849-1855, Trad. De l'allemand par Paul Ithier, 2ème Edit, Paris/ Bruxelles et Leipzig, 1863, T. IV, p. 33.

30 - BARTH (H), op. cit, p. 33.

31 - ABITBOL (M), op. cit, p. 238.

32 - LENZ (O), Timbuctou. Voyage au Maroc, au Sahara et Soudan, Trd. de l'allemand par P. Lehautcourt, Librairie Hachette et Cle, Paris, 1887, T. II, p. 175.

- عقب عودتهم إلى حكم تنبكت - جددوا بيعتهم لملوك المغرب، وإن كانت المصادر السودانية تعوزنا في إثبات ذلك. بينما من الجانب المغربي، تكشف إحدى الرسائل الديبلوماسية المعاصرة لفترة حكم مولاي الحسن الأول (1290-1311هـ / 1873-1894م)، أن سيادة المغرب امتدت إلى بلاد السودان، وهي مؤرخة في 24 محرم 1298 / 27 دجنبر 1880، صدرت عن وزير بريطانيا العظمى المفوض جون دراموند هاي كجواب على رسالة الوزير الصدر محمد بن العربي الجامعي، التي يطالبه فيها بإخراج ما كنزي من طرفاية، مذكرا إياه بالحدود التاريخية للمغرب الممتدة جنوبا إلى بلاد السودان الغربي، إذ جاء فيها : "وأخبرتنا أيضا أن السلطان أيده الله أجاب بأن حدود إيالته مراكش إلى تخوم السودان [...] حتى تنبكت داخله فيها مع بلاد كوكية وكاغة وغير ذلك مما ذكرت"³³. ثم انضافت الرسالة التي بين أيدينا لتزكي هذا الطرح، سيما بعد تزايد خطر الاستعمار الفرنسي والإنجليزي الذي أصبح يهدد منطقة حوض النيجر بأكمله، والذي تفاقم خلال منتصف القرن 19، مما كان مدعاة لرماة تنبكت إلى العودة إلى حضن الوطن الأم للاحتماء به باسم عقود البيعة التاريخية.

ب - بداية الاكتشاف الفرنسي لتنبكت عبر مياه النيجر

تطلعنا الوثيقة على محطة جديدة من تاريخ الاكتشاف الأوربي لمجرى النيجر، وهي المعبر عنها في العبارة التالية : "أن النصراني بابوره جاء ورس في تنبكت". فمن هو "النصراني" صاحب الرحلة الاستكشافية النهرية التي قادته سنة 1885، أو قبل ذلك بقليل، إلى ميناء تنبكت حيث رسا بسفينته قصد المتاجرة مع الأهالي، قبل رحلة كارون Caron المتفق حوله كأول من قام برحلة إلى تنبكت من هذا المستوى ؟

يكنم الجديد في هذه الرسالة في أنها تخبرنا - ربما لأول مرة - بوصول رحلة استكشافية نهرية إلى تنبكت سابقة عن رحلة كارون، ومتزامنة مع رحلة جول دافوست (Jules Davoust) (1885) التي أوصلته إلى حدود خليج جنبي، والتي جمعت هي الأخرى بين الاكتشاف والتجارة على نحو ما عهدناه عموما في الرحلات الاستكشافية الفرنسية الرسمية التي تمت عبر نهر النيجر وروافده. لقد شهدت بداية الثمانينات من القرن 19 رحلتين أخريتين، أولهما رحلة النمساوي لنز (Lenz) البرية

33 - سيمو (بهيجة)، المصدر السابق، ص. 212.

الذي قاده إلى تنبكت سنة 1881 انطلاقا من المغرب، ورجع عبر السنغال³⁴، والثانية رحلة الإيطالي بيونفانتى M. Buonfanti الذي وصل إلى تنبكت سنة 1883 عبر النهر انطلاقا من ساي Say³⁵.

فأمام هذا اللبس الذي يعتري النص بخصوص أصل المستكشف المشار إليه في الرسالة بـ "النصراني" - خلافا لما ورد في الرسالة الثانية - كما سيأتي الحديث، ثم بالنظر للظرفية التاريخية السائدة، نميل إلى القول إن النصراني المذكور لا يمكن أن يكون إلا فرنسيا، وذلك بالنظر إلى التأثير الكبير الذي أصبح لفرنسا في المنطقة انطلاقا من مستعمرتها في السنغال، بعد فشل تدخلها العسكري البري انطلاقا من الجزائر، وقد حصلت عليه نتيجة اعتمادها العمل الديبلوماسي، القائم على جر الأهالي للمتاجرة مع الفرنسيين، وعقد علاقات "صداقة" معهم، وهي السياسة التي مهدت لها ببناء جملة من الحصون يأتي في مقدمتها حصن مدين (Médine) في سنة 1855، على بعد 12 كيلومترا عن كايس Kayes³⁶.

كما شجعت الاكتشافات الهيدروغرافية العلمية للنيجر وروافده، بمبادرة من النقيب البحري أوغين ماج (Eugène Mage) انطلاقا من سنة 1863³⁷. بل سيتضاعف الوجود العسكري الفرنسي عقب تشييد مراكز جديدة ما بين 1881 و1885، في كيتا (Kita) وبادونبي (Badumbé) وباماكو (Bamako) وكوندو (Koundou) ونياجاسولا (Niagassola)، كخطوة متقدمة في تاريخ التغلغل الاستعماري الفرنسي في الحوض النيجري، وتمهيدا للوصول إلى جنبي ومنها إلى تنبكت، "جوهرة السودان" أو "لغز السودان" كما كان يسميها الفرنسيون آنذاك³⁸. وقد شهدت سنة 1884 أجراة مشروع اكتشاف الحوض الأسفل للنيجر ببناء أسطول صغير، قابل للتفكيك، أطلق عليه اسم "النيجر"، يوافق هيكله ومعداته النظام الهيدروغرافي للنيجر، وهو الأسطول الذي مكن النقيب البحري جول دافوست (Jules Davoust) سنة 1885 من التقدم في النهر بعد عبوره لأراضي سيقو، وبلوغه - لأول مرة في تاريخ البحرية الفرنسية - حدود خليج جنبي، حيث يلتقي نهر باني بنهر

34 - FAIDHERBE (Le Général), Le Sénégal. La France dans l'Afrique Occidentale, Ed. Librairie Hachette et Cie, Paris, 1889, p. 356.

35 - FAIDHERBE (Le Général), op. cit, p. 345.

36 - MAGE (E), Voyage dans le Soudan occidental, (Sénégal-Niger) 1863-1866, Paris, Librairie Hachette et Cie, 1868, p. 2.

37 - GUILLEMIN (D), Le rôle de la flottille du Niger dans la conquête du Soudan français, 1884- 1895, trad. de l'anglais par Robert A. Doughty, Revue Historique des Armées, n° 271, 2013, p. 60- 62.

38 - VALLAT (G), A la conquête du continent Noir, Missions militaires et civiles de 1892 à 1900 inclusivement d'après des documents officiels, Paris, 1901, p 111- 121.

النيجر، وحيث تمتد سهول مسينا المزود الغذائي الأول لتنبكت³⁹. فهل يكون دافوست هو "النصراني" المشار إليه في الوثيقة؟ فهذا ما لا نستطيع الحسم فيه في ظل المصادر المتوفرة لدينا.

بيد أن هناك مفارقة غريبة تطرحها النصوص المجمعة لدينا؛ إذ في الوقت الذي يعبر فيه صاحب الرسالة عن رفض الأهالي التعامل التجاري مع "النصراني" الذي رسا بزورقه في مينائها إلا بإذن من سلطان المغرب الذي تربطهم به عقد البيعة، تحدثنا المصادر الفرنسية عن رغبة حكام تنبكت في ربط علاقات تجارية مع الفرنسيين، تمثلت في إرسال مجموعة من السفراء إلى فرنسا ومستعمراتها في السنغال سنة 1884، يرد من بينهم اسم الحاج عبد القادر ولد بكر الذي بعث إلى باريس⁴⁰، وسفير ثاني إلى كايس (Kayès) بإيعاز من خير الدين ابن الكاهيا إبراهيم من أجل دعوة الفرنسيين للمجيء إلى تنبكت للمتاجرة⁴¹. أما السفارة الثالثة، فكانت قبلتها سان- لويس (Saint-Louis) بهدف عقد علاقات تجارية مع الفرنسيين هناك⁴². وعلى خلفية هذه السفارات وما تركته من إفادات استخباراتية، أصدرت الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية بتاريخ 9 نونبر 1884، تقريراً مفصلاً عن مدينة تنبكت يمس بالدرجة الأولى التجارة، وسائلها، موادها، أنشطة موانئها، بالإضافة إلى معلومات أخرى تمس جوانب اجتماعية وثقافية⁴³.

هكذا يمكن القول: إنه إذا كان موضوع تجديد البيعة لا نقاش فيه بحكم الروابط التاريخية التي تشد السودان الغربي إلى الإيالة المغربية، ثم بالنظر للأخطار الاستعمارية المحدقة بالمنطقة، ومما يستدعيه الوضع من ضرورة الاحتماء تحت مظلة الوطن الأم، فإننا من جهة أخرى نرى أن خبر رسو سفينة "النصراني" بإحدى موانئ تنبكت قبل رحلة كارون Caron سنة 1887، تنفرد به الوثيقة التي بين أيدينا. كما أنه بالنظر لمخطط فرنسا الاستعماري في الحوض الأوسط للنيجر، والذي شرعت أجهزتها العسكرية والمدنية (التبشير - العمل الاجتماعي) في وضع ترسانة دقيقة له، يصعب أن نتصور - في حدود المصادر المتوفرة لدينا - أن يكون صاحب البابور أوريبا غير فرنسي.

39 - HUBERT (L) et DELAFOSSE (M), Tombouctou. Son Histoire- Sa conquête, Paris, 1894, p.8 ; VALLAT (G), op. cit, p 112.

40 - FAIDHERBE (Le Général), op. cit, p.347 ; TRESCALY (Marcel) (Lieutenant Palat), Journal de route et correspondance, Paris, 1886, p. 102- 103 ; CARON (E), op. cit, p. 264.

41 - ABITBOL (M), op. cit, p.238.

42 - TRESCALY (M). op. cit, p.88.

43 - Journal Officiel de la République Française, 9 novembre 1884, n° 308 : «Renseignements sur Tombouctou»

ثانيا : الوثيقة الثانية مؤرخة في أواسط رمضان 1311 / أواخر مارس 1894

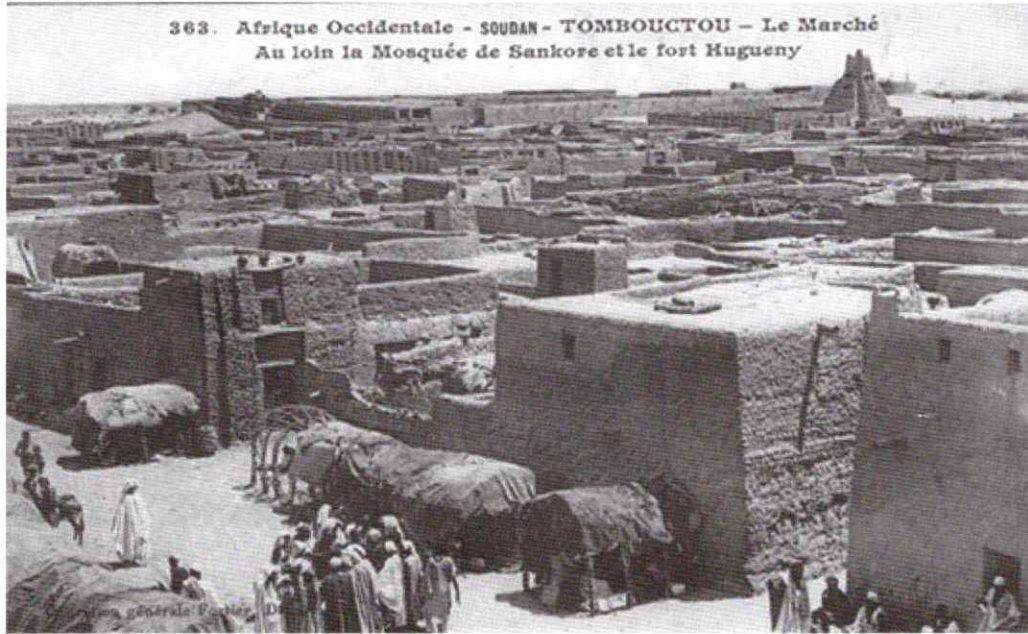
وهي عبارة عن رسالة صادرة عن السلطان مولاي الحسن، جوابا على رسالة البشير بن محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي نيابة عن أعيان تنبكت، مؤرخة في أواسط رمضان 1311 / أواخر مارس 1894، بفارق زمني عن الأولى يقدر بتسع سنوات وثلاثة أشهر ونصف الشهر (خالية من الطابع السلطاني). وبالنظر لأهميتها البالغة، حري بنا أن نقدمها كاملة قبل مناقشة مضامينها، وهي كالتالي :

"المحب الأرضي السيد البشير بن محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي. وبعد، وصل كتابك عن إذن أعيان أهل تنبكت بأن الفرنسيس كان راودهم على البيع والشراء، وأجبتهم بأنكم في طاعتنا ولا تفعلون معه شيئا إلا بأمرنا الشريف. فإذا به حارب أهل جن وأخذها وعبر البحر قاصدا ولد ج عمر، كبير قومه. ثم كاتبهم بقبول ما طلب منكم بعد فراغه من مقاتلته ولد ج المذكور، وطلبتم من الشريف جنابنا إغاثتكم وإعانتكم، واعتذرتهم عن القدوم لحضرتنا الشريفة بعطش مفاوز الطريق، وأنكم حيث يصل إبان الشتاء تقدمون لأعتابنا السنية، وصار بالبال. فقد كتب كبيركم الخديم يحيى بن الكاهي لحضرتنا الشريفة بمثل ذلك، وأجبناه صحبتته بأن ما طلبتموه من استنقاذكم وإعانتكم لما فيه مدافعة عنكم، فذلك لدينا من الأهم الأكيد. ولو أمكن الاتصال لبالغنا في إمدادكم ومئاواتكم منا إلى ركن شديد. إلا أن طول المسافة وإفراط البعاد قد يصير العزم إمهالا ويجعل الحال استقبالا. ولذلك أوجب الشرع الإعانة على أهل المحل الذي فاجأه العدو، والمجاورين لهم خاصة، وجوبا عينيا، دون البعداء، لسقوط الفرض عنهم شرعا بسبب البعد الشاق. على أننا حاولنا الكلام مع الفرنسيس في شأن كفه ورفع يده عن التغلب عليكم الواقع بلا قاعدة. فافتضت السيرة الاصطلاحية التوقف على الحجة بكونكم تحت إيالتنا السنية، ومن جملة مملكتنا المرعية، ليحتج بذلك على الفرنسيس. وعليه فإن كانت لديكم مكاتبات من أسلافنا الكرام المقدسين في دار السلام أو ظهائر شريفة قديمة أو إشارة يقينية، فوجهوا لنا ما تحصل به الحجة من ذلك، لنحاجه به، ويسلم أنكم تحت إيالتنا السعيدة، ولا يكن تقصير ولا غفلة بحول الله عنكم بكل ما أمكن من المدافعة والاستنقاذ بحول من له القوة. وهو المسؤول سبحانه أن يكفي بلاءهم ويكشف ما ألم ويوفي المؤمنين بما وعدهم على لسان أنبيائه ورسله الكرام من النصرة والعناية، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، والسلام. في أواسط رمضان عام 1311⁴⁴.

44 - سيمو بهيجة، المصدر السابق، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 712-713.

فنحن إذن أمام وثيقة تاريخية هامة، قد تحتاج إلى بحث متأن ومستفيض من قبل الدارسين المتخصصين، نكتفي هنا بتقديم النتائج الأولى التي خلصنا إليها، وهي كالتالي :

أولا : نلاحظ بداهة أن تاريخ تدوين الرسالة من قبل السلطان مولاي الحسن، أي في أواسط رمضان 1311 / أواخر مارس 1894، تم بعد سقوط مدينة تنبكت في يد القوات الفرنسية بحوالي أربعة أشهر (15 ديسمبر 1893)⁴⁵. وبغض النظر عن الظروف التي أحالت دون وصول هذا الخبر - على جسامته - إلى السلطان، يحق القول إن الفترة الزمنية الفاصلة بين تاريخ تدوين أعيان تنبكت لرسالتهم وبين تاريخ التوصل بالإجابة، أي ما بين 8 أشهر إلى سنة، فترة زمنية كافية لتغيير مجريات الأحداث بالنظر لخطورة المشهد السياسي الذي رسمته الوثيقة، وما أنبأت به بخصوص مآل العاصمة العلمية والاقتصادية لبلاد السودان الغربي، عقب اكتساح الجيش الفرنسي لإقليم مسينا، المستودع الغذائي الضروري لأهالي عاصمة الباشوية المغربية⁴⁶، بما في ذلك مدينة جني، توأم مدينة تنبكت، انطلاقا من 12 أبريل 1893⁴⁷.



مدينة تنبكت بعد الاحتلال الفرنسي *

45 - 3 ; Hackard (Auguste), Monographie de Tombouctou, Ed. Société des Etudes Coloniales et Maritimes, Paris, 1900, p. 71

46 - CARON (E), De Saint-Louis au port de Tombouktou. Voyage d'une canonnière française, Ed . Augustin Challamel, Paris, 1891, p. 254.

47 - Hackard (A.), op. cit, p. 72.

* الصورة مأخوذة من موقع إلكتروني.

ثانيا : لا نعرف أي شيء عن البشير بن محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي، كاتب الرسالة الأصل موضوع جواب السلطان مولاي الحسن. بيد أن ورود اسمه غير مقرون بكلمة "خديم"، يجعلنا نفترض أن الشخص قد يكون أحد أعيان المدينة الذين اعتادوا تدبير شؤونها خلال فترات الفراغ السياسي، وما أكثرها في تاريخ تنبكت، مما يجعلنا نرجح أن كتابة الرسالة الأصل تمت أثناء فترة عزل الكاهيا يحي من طرف الطوارق في سنة 1893، غداة سقوط جني في يد الجيش الفرنسي، وربما بعد أسابيع أو أيام فقط من وقوع الحدث⁴⁸.

بيد أن اللقب يبدو غير غريب في تاريخ القياد المغاربة مما يدفعنا إلى التساؤل حول العلاقة الأسرية التي يمكن أن تربط المسمى "البشير بن محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي" كاتب الرسالة نيابة عن أعيان تنبكت إلى السلطان مولاي الحسن، باسمين لقائدين على الأقاليم الجنوبية زمن حكم السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام (1238-1276هـ/1822-1859م)، وردا ستة مرات على الأقل في الوثائق الملكية المنشورة، أحدهما القائد محمد بن الرحمن التلموذي⁴⁹، والثاني القائد الزين بن عبد الرحمن التلموذي⁵⁰، ومن ثم نفترض أن يكون الأول أبا للبشير، كاتب الرسالة، والثاني عما له. وبناء عليه، يمكن القول أنه - بالنظر للدور الذي لعبه الأعيان في تدبير الشأن الداخلي للمدينة خلال فترات الأزمات السياسية - قد تكون السلطة المغربية ظلت ممثلة في ممتلكاتها القديمة في الحوض الأوسط للنيجر من خلال أبناء قوادها.

ثالثا : يتبين أن أحفاد الرماة المغاربة تخلوا خلال هذه الفترة عن لقب "باشا" واكتفوا بلقب "كاهيا"؛ فالكاهيا يحي الوارد اسمه في الرسالة كحاكم لمدينة تنبكت قد يكون - بحسب رئيس الرهبان (Auguste Hackard) - ابن الكاهيا بور اهيم ابن عمار، أحد حفدة الرماة المغاربة الذي نصبه الحاج عمر حاكما على تنبكت بعد احتلاله لها⁵¹، بذلك نرجح أن تكون رسالة القائد أحمد بن محمد التمرقي إلى السلطان مولاي الحسن، موضوع الرسالة الأولى من هذه الدراسة، متزامنة مع فترة حكم الكاهيا بور اهيم هذا، ومن ثم قد يكون هذا الأخير أول من جدد البيعة للملوك العلويين من الجيل الأخير من أبناء الرماة.

48 - Ibid, p. 70. Note n° 1.

49 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية من خلال الوثائق الملكية، القسم الأول، الجزء، المصدر السابق، ص. 139، ص. 141، ص. 147، ص. 151.

50 - نفسه، ص. 143، ص. 149.

51 - Hackard (A), op. cit., p 70, nn° 1.

بعد وفاة هذا الأخير سنة 1884⁵² خلفه ابنه يحيى الكاهيا الذي حكم حوالي تسع سنوات. لقد كانت لهذا الأخير مراسلات مع سلاطين المغرب وصلتنا منها اثنتان، الأولى ممثلة في الوثيقة التي بين أيدينا، بينما بلغنا صدى الثانية عبر النقيب البحري كارون (E. CARON) في سياق حديثه عن أخبار المنطقة التي جمعها وضمناها في رحلته، وتتلخص في أن سلطان المغرب بعث في سنة 1886 رسالة إلى حاكم تنبكت يأمره فيها بمنع الفرنسيين الدخول إلى مدينتي سنسندنج وجني باعتبارهما مدينتين تابعتين للسيادة المغربية، وإلا سيقوم بإرسال حملة عسكرية تتولى إنشاء مركز للحراسة هناك باسم الدولة المغربية⁵³. بل يمكن افتراض أن قائد الزورق الذي رفض الكاهيا يحيى مقابلته والتعامل التجاري معه، هو كارون ذاته؛ لقد رسا هذا الأخير بزورقه المسلح القابل للتفكيك في ميناء قرية كوريومي (Koriumé)، إحدى موانئ تنبكت، يوم 16 غشت عام 1887، كخطوة جديدة من مراحل تقدم البحرية الفرنسية عبر النهر⁵⁴، وبعث برسالة عن الحكومة الفرنسية إلى الكاهيا يحيى، يطلب فيها ربط علاقات "صداقة" مع الأهالي، وفتح أسواق المدينة أمام الفرنسيين من أجل التبادل التجاري، إلا أن الكاهيا رفض الرد على الرسالة، بل امتنع حتى عن مقابلته معللا رفضه بأن سكان تنبكت والطوارق في طاعة سلطان المغرب، ولا يحق له عقد "علاقات سلام أو صداقة أو تجارة" مع حكومته إلا بترخيص من هذا الأخير⁵⁵، وهو ما يتطابق مع محتوى الوثيقة التي بين أيدينا.

ومما ينبغي الإشارة إليه أيضا، أن الكاهيا يحيى نفسه هو الذي كان على رأس إدارة تنبكت حين وصول سفيتي "النيجر" (Niger) و"ماج" (Mage) بقيادة النقيب البحري جيم (G. JAIME) إلى ميناء المدينة، وذلك في 3 أكتوبر 1889⁵⁶، وهي البعثة التي أوكلت إليها الحكومة الفرنسية مهمة استكمال الاكتشاف الهيدروغرافي للنيجر الذي بدأه كارون من قبل.

ومما أفاد به النقيب البحري جيم أنه لم يستطع مقابلة الكاهيا يحيى لتحكم الطوارق في مصائر الأهالي، وإرهاقهم بالغرامات منذ طردهم للفلولاني من المدينة⁵⁷، بل هم من قاموا بعزله سنة 1893، ورشحوا للمنصب أخاه عبدو، إلا أن هذا الأخير رفضها، فولوا حمديا الابن الثالث للكاهيا بور

52 - CARON (E), op. cit, p. 257 ; Hackard (A), op. cit., p 70, nn° 1.

53 - Ibid, p. 235

54 - Ibid, p. 239.

55 - Ibid, p. 253.

56 - JAIME (G), De Koulikoro à Tombouctou à bord du Mage 1889- 1890, Ed. E. Dentu, Paris, 1892, p. 235.

57 - Ibid , p. 232.

أهمهم، ويعد هذا الأخير آخر حكام تنبكت من نسل الرماة المغاربة، قبل سقوطها في يد فرقة من جند البحرية الفرنسية بتاريخ 15 ديسمبر 1893⁵⁸.

والواقع أن رحلة جيم لم تتوقف مهمتها عند الاكتشاف العلمي للنظام الهيدروغرافي لمجرى النيجر، بل تعدتها إلى مهام أخرى ذات طبيعة استخباراتية في غاية الأهمية، لتحديد نقط الضعف في المنشآت المعمارية لمدينة سيقو- سيكورو، ورفع تقارير عن بلاد البمبرا التي كانت تابعة آنذاك لإمبراطورية الحاج عمر⁵⁹. ومن الممكن القول إن رحلة جيم هي التي حددت بشكل عام مصير إقليم سيقو ومسينا، ثم بعد ذلك تنبكت بالنسبة لتوجهات السياسة الاستعمارية الفرنسية في حوض النيجر الأوسط.

رابعا : ترسم الرسالة بوضوح المشهد السياسي الخطير في المنطقة، يعكسه استعجال الطرف التنبكتي في طلب المساعدة لصد الخطر الفرنسي الذي صار قاب قوسين عقب اجتياحه لجني توأم تنبكت، والتأكيد على ذلك عبر رسالتين على الأقل، ثم رد فعل الطرف الرسمي المغربي الراض للمساعدة، أو غير قادر عليها، مستندا في ذلك على حجج أحيانا غير مقنعة تعفيه عن ذلك، كطلب الدليل المادي على التبعية للإيالة. فهاذان المستويان المختلفان في الظاهر بين المستنجد والمستنجد به، ليس إلا عملة لوجه واحد يجمعهما الشعور بخطر التهديدات الاستعمارية الأوربية التي غدت تهدد استقلال المنطقة قاطبة، خصوصا الخطر الفرنسي الذي كانت مؤسساته العسكرية والمدنية تخطط لاكتساح المغرب والسودان الغربي برمته انطلاقا من مستعمراته في الجزائر وساحل السنغال.

تكشف التقارير الرسمية لقياد الجيش الفرنسي أن مخطط السياسة الاستعمارية الفرنسية لم يكن يرم إلى احتلال تنبكت فحسب، وإنما أيضا إلى الاستحواذ على المغرب وممتلكاته في صحرائه وما وراءها، ابتداء بتدمير اقتصاده القائم في جزئه الأكبر على التجارة مع بلاد السودان الغربي، ولعل من بين المؤشرات التاريخية التي تساعد على تأكيد هذا الطرح تسخير الحكومة الفرنسية إدارة قنصليتها بالمغرب منذ وقت مبكر لتزويدها بالمعلومات عن أسرار التجارة الصحراوية التي كانت تتم عبر مدنه في ودان وتودني وتزنيت والصويرة وتيزونين وغيرها، من ذلك ما قام به أوغست بومبي (A. Beaumier) حين كان قنصلا مفوضا لفرنسا بمدينة الصويرة خلال الفترة الممتدة ما بين 1865

58 - HACKARD (A), op. cit., p. 71.

59 - JAIME (G), op. cit, p. 150.

و1876⁶⁰، من إرسال اليهودي المغربي المحمي الحاخام ماردوشي (Mardochee) إلى مدينة تنبكت لتزويده بأسرار التجارة الصحراوية تحت غطاء المتاجرة لفائدته⁶¹، وهو اليهودي نفسه الذي التقى به الرحالة لانز (Lenz) سنة 1881 في ذات المدينة حيث كان مقيما، وزوده بأسرار أنشطتها التجارية⁶². بل لقد كان بومبي وراء المعلومات الدقيقة التي تلقتها الإدارة الفرنسية بخصوص الأرباح التي كان يجنيها التجار الإنجليز، منافسوهم التقليديون، في محطة تيزونين (أو توزينين) المغربية، والتي قدرت قيمتها ما بين 600 ألف و 700 ألف فرنك فرنسي للقافلة⁶³.

ولم يخرج النقيب البحري كارون هو الآخر عن هذا المخطط الاستعماري، إذ اعتنى برسم خريطة للممرات التجارية التي تربط المغرب بتنبكت، وحدد محطاتها والمسافات الفاصلة بينها ونقط المياه بها⁶⁴. وقد ركز الحديث على مواد التجارة الصحراوية خصوصا تجارة ريش النعام في ويندي Windi (Libtako)، والتي كانت ما تزال إلى حدود تاريخ رحلته، حكرا على التجار المغاربة. بل طالت تحرياته لتشمل حتى النشاط التجاري للإنجليز عبر طريق الداهومي - سالاقا - موشي (Dahomey- Salaga- Moshi)، خصوصا تجارة بنادق منشيستير (Manchester) التي وصلت إلى تنبكت⁶⁵.

ولم تقف التقارير الاستخباراتية عند الجانب الأدبي الوصفي لما كان يجري في المنطقة، وإنما تجاوزتها إلى تحفيز الإدارة العسكرية الفرنسية على مواصلة التدخل في المنطقة، وذلك بإعطاء توقعات للأرباح التي ستجنيها الحكومة الفرنسية إذا ما تم لها احتلال تنبكت، وتحويل الممرات التجارية من اتجاهاتها الصحراوية التقليدية، إلى المراكز الفرنسية الجديدة في الحوض الأعلى للنيجر والسنغال في سيقو، وسانساندغ، ومدين، وسان - لوي، عبر شبكة السكك الحديدية التي شرعت في إنجازها قبل هذا التاريخ لربط مستعمراتها الجديدة بمراكزها القديمة في السنغال⁶⁶.

60 - CAILLE (J), Auguste Beaumier, consul de France au Maroc de 1865 à 1876, Hespéris 1950, p. 81.

61 - DELMONT (Th), op. cit, p 16

62 - LENZ (O), op. cit, p. 154.

63 - Ibid, p. 266, nn° 1.

64 - CARON, op. cit., p. 266.

65 - Ibid., p. 266- 267.

66 - Ibid, p. 265- 266.

حول مشروع الاحتلال الفرنسي في المنطقة انظر أيضا :

- Journal Officiel de la République Française, 9 novembre 1884, n° 308 : «Renseignements sur Tombouctou» :

- FAIDHERBE (), L'Avenir du Sahara et du Soudan, Revue maritime et coloniale, n° juin 1863, p. 221 ... ; HUBERT (H) et DELAFOSSÉ (M), Tombouctou. Son histoire- Sa conquête, Paris, 1894, p. 10...

هكذا نخلص إلى تسجيل الأهمية التاريخية للوثقتين الملكيتين المنطلق الأساسي لهذه الدراسة، إن على مستوى ملء صفحات جديدة من تاريخ الحضور السياسي المغربي في الحوض الأوسط للنيجر خلال الربع الأخير من القرن 19 عبر مؤسسة البيعة التي تنضاف إلى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التقليدية التي ربطت بين الطرفين عبر التاريخ، أم على مستوى رسم المشهد السياسي في المنطقة، والأطراف المختلفة التي كانت تتجاذبه. وفي انتظار اكتشاف وثائق جديدة، يمكن القول أن جزءا كبيرا من التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي المغربي مازال مغمورا في بلدان الساحل السوداني.

مدينة تومبوكتو والحقوق الثقافية السكان المالئون والحق في صيانة ذاكرتهم الثقافية

د. محمد أمطاط

أستاذ التعليم العالي مؤهل،

المركز الوطني لتكوين مفتشي التعليم - الرباط

يعود اختيار هذا العنوان لثلاثة اعتبارات موضوعية:

- أولاً: الروابط التاريخية التي جمعت بين المغرب ومالي منذ قرون، وتركت رصيذا حضاريا مشتركا مغربيا/ماليا في المعارف والعمران، أصبح اليوم في حاجة ماسة إلى الترميم والإصلاح بسبب الاعتداءات التي مستها سنتي 2012-2013.

- ثانيا: مكانة تومبوكتو الكبيرة كمركز حضاري وثقافي وديني في إفريقيا جنوب الصحراء بين القرنين 13 و19 الميلاديين. كان يؤمها الطلبة من المغرب ومصر والأندلس، الذين وصل عددهم خلال القرن الخامس عشر في جامعة سانكوري مثالا إلى 25000 باحث.

- ثالثا: أثر الاعتداءات الشنيعة التي مست مدينة تومبوكتو سنتي 2012-2013 على أيدي المتمردين من الجماعات المسلحة، والتي انتهكت الحقوق الثقافية لسكانها بسبب ما ألحقته من خراب بعدد من المراكز الثقافية والمواقع الأثرية مثل الأضرحة وإتلاف بعض الكتب القديمة والوثائق والمخطوطات.

وتناقش هذه الدراسة الموضوع من خلال ثلاثة محاور أساسية:

- 1 - مدينة تومبوكتو بين المغرب ومالي: تاريخ ورصيد ثقافي وحضاري مشترك.
- 2 - تراث تومبوكتو المادي وغير المادي: ثروة إنسانية ما زالت مهددة .
- 3 - دور المغرب دولة ومجتمعا مدنيا في حماية الحقوق الثقافية لسكانه مدينة تومبوكتو.

1 - مدينة تومبوكتو بين المغرب ومالي: تاريخ ورصيد ثقافي وحضاري مشترك

تأسست مدينة تومبوكتو بداية القرن الحادي عشر الميلادي، إلا أنها لم تكتسب شهرة واسعة بصفتها مركز إشعاع ثقافي وعلمي وحاضرة للثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا إلا في منتصف القرن الخامس عشر. كما كانت مركزا سياسيا للعديد من الملكيات التي نشأت بالمنطقة: مملكة مالي، ومملكة سونغاي¹.

وعلى امتداد التاريخ، ظلت العلاقات مستمرة بين المغرب ومالي²، وكانت في تومبوكتو جالية مغربية كثيرة العدد، تسكن حيا خاصا بها. حلت بالمدينة قادمة من عدة مدن مغربية مثل مكناس وسلا ووجدة ومراكش وسجلماسة. اشتغل بعض عناصرها في التجارة وفي بعض الوظائف الإدارية كالقضاء. وكانت للكثير منهم مكانة محترمة في المجتمع التومبوكتي، عندما أدخلوا إلى تومبوكتو بعض التقاليد الدينية من بينها الاحتفاء بشهر رمضان المبارك وتشجيع الأطفال على قراءة وحفظ القرآن، وتعمير المساجد بالمصلين في أوقات صلاة الجمعة³.

وعندما وصل الرحالة ليون الإفريقي إلى مدينة تومبوكتو في سنة 1513، خصها بحديث بالغ الأهمية، لأنه عندما زارها كانت في أوج ازدهارها، حيث أشار مثلا إلى رواج تجارة الكتب العربية وانتشار خزانات الكتب والمدارس القرآنية ومراكز تعليم علوم الشريعة، وشهرة بعض المغاربة كأحمد بولعراف كعالم ومفتي مدينة تومبوكتو وأشهر كتي متخصص في الثقافة العربية في إفريقيا الغربية⁴.

¹ - يرجع تأسيس مالي بحسب رواية ابن خلدون إلى سندياتا أو ماري جاطة 1230-1255، حيث يقول "كان ملكهم الأعظم الذي تغلب على شعب الصوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطة [بمعنى الأمير الأسد]."

عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، دار الفكر، 1981، ج6، ص 413.

² - وصف ابن بطوطة والحسن الوزان تمبوكتو عاصمة مالي بأنها كانت سوقا تجاريا مزدهرا يرتبط بعلاقات وثيقة ودائمة مع أسواق شمال إفريقيا وخاصة مراكش وسجلماسة، وتتعامل بالذهب سبائك، وتأتيها المخطوطات والخيول من أقطار المغرب. ويتحدث الوزان كذلك بنفس الأوصاف عن ازدهار الحركة الثقافية بهذا المركز.

إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية، العدد 269 ماي - أبريل 1988، مجلة دعوة الحق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، تم الاطلاع عليها إلكترونيا في: <http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/6944>

³ - عبد الواحد أكيمير، مغاربة تومبوكتو وأضرحتا، جريدة المساء 16 يوليو 2012

تم الاطلاع عليها إلكترونيا في: <http://www.marocpress.com/almassae/article-67854.html>

⁴ - المرجع نفسه.

من جهة أخرى تأثرت تومبوكتو بالعمارة المغربية، وظهرت بنايات شبيهة بتلك الموجودة جنوب المغرب. وبرزت أسماء مغربية شهيرة في الهندسة المعمارية، قدمت مساهمات محترمة في إنجاز عدد من المعالم العمرانية، يوجد من بين أشهرهم المهندس المعماري الأندلسي أبو إسحاق الساحلي مهندس مسجد «جينقري بير»⁵.

في المقابل كانت المراكز العلمية المغربية كفاس ومراكش عبر تاريخ المغرب تستقبل العديد من أهل تومبوكتو من رجالات وطلبة العلم والفقه، حلوا بها إما لطلب العلم أو التدريس. وكان لبعض علماء تومبوكتو دور مهم في إثراء الحركة الثقافية ببلاد المغرب لما تركوه من مساهمات فكرية محترمة ومن مؤلفات زاخرة، من بينهم مثلاً أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي المالكي، والمختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي التنبكتي، وأبو عبد الله محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي التنبكتي⁶.

2 - تراث تومبوكتو المادي وغير المادي: ثروة إنسانية ما زالت مهددة .

- التراث غير المادي: بحكم أن مدينة تومبوكتو كانت بين القرنين 13 و 19 مركزاً لتجارة الكتب ومقصدا للعلماء والفقهاء من شمال وغرب إفريقيا، فقد كتبت في هذه الفترة المئات من المؤلفات والمخطوطات في مواضيع متعددة مثل الأدب والفقه والتفسير والنحو والبلاغة والتاريخ والعقيدة والحديث وأصول الحكم، والقانون واللغة والرياضيات والطب والفيزياء وغيرها.

وتقدر بعض الدراسات مخطوطات تومبوكتو بحوالي 300 ألف مخطوطة، تعرضت بصفتها جزءاً مهماً من الذاكرة الجماعية للبشرية لتهديد مباشر على أيدي المتمردين المسلحين ستنى 2012-2013. وحسب شهادة الباحث في مشروع مخطوطات تومبوكتو الشيخ ولد بابانا "فيذا كانت غالبية المخطوطات القديمة بالمدينة قد سلمت من الإتلاف، باستثناء بعض المخطوطات التي اختفت وربما احترقت حين أضرم المسلحون الفارون من المدينة النار في معهد أحمد بابا للتوثيق والأبحاث". ويضيف أن "مكتبة المعهد التي تحتوي على آلاف المخطوطات التاريخية النفيسة التي

5 - المرجع نفسه.

6 - انظر مزيداً من التفاصيل حول هذه الشخصيات العلمية عند: لحسن تاو شيوخت، "علماء من السودان الغربي بالمغرب الأقصى"، مجلة ميثاق الرابطة، جريدة إلكترونية تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء، العدد 238، 27 أكتوبر 2016.

تم الاطلاع عليها إلكترونياً في: <http://www.mithaqarrabita.ma> علماء - من - السودان - الغربي - بالمغرب - الأقصى

كتب أغلبها علماء عرب، غالبيتها سليمة بفضل الباحثين الذين نقلوا كنوزها إلى مكان آمن وحفظوها خلال الأزمة التي عاشتها تومبوكتو⁷.

- التراث المادي: تضم مدينة تومبوكتو عدة مواقع مصنفة منذ سنة 1988 ضمن التراث العالمي تحتضن تحفا معمارية من الطين على غرار مساجد جينغريبر وسانكوري وسيدي يحيى، علاوة على 16 مقبرة وضريحاً. بجانب أربعة مواقع مدرجة ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو قريبة من تومبوكتو مثل ضريح اسكياس بمدينة غاو، والمدينة القديمة بجيني موبتي ومنحدرات بلاد دوغون. ويشهد هذا التراث الغني على إنجازات الإنسان الإفريقي في المنطقة، ويظل رمزا للحوار الثقافي والقيم الدينية السمحة⁸.

وقد عرفت تومبوكتو تدميراً لبعض مآثرها التاريخية سنة 2012 على أيدي المتمردين من الجماعات المسلحة، مما أثار موجة من الاستنكار المبرر في العالم بأسره. فالاعتداء لم يقتصر على مجموعة من المنشآت المبنية من الطين والخشب، بل كان يستهدف من جهة التراث الثقافي في تومبوكتو وقيم السلام والحوار والتسامح والتبادل والعيش المشترك التي يحملها، واستهداف من جهة أخرى للهوية والحقوق الثقافية للمجتمع التومبوكتي والإنساني ككل.

3 - دور المغرب دولة ومجتمعاً مدنياً في حماية الحقوق الثقافية في مدينة تومبوكتو،

كان المغرب من الدول الأولى التي نادت بـ "تدخل عاجل" من الدول الإسلامية والمجموعة الدولية لحماية التراث المادي وغير المادي في مالي، على إثر ما تعرضت له من اعتداءات على أيدي الجماعات المسلحة. وبحسب بيان لوزارة الخارجية المغربية فـ "إن المغرب يدعو الدول الإسلامية والمجموعة الدولية إلى تدخل عاجل ومشترك لحماية التراث المالي الذي يشكل جزءاً من التراث الإسلامي والإنساني". كما عبر المغرب عن "قلقه الشديد إزاء التطورات المستمرة في مالي والتي أدت

7 - تصريح ورد عند: سكيبة اصنوب، انتصار مخطوطات تمبوكتو، جريدة الاتحاد الاشتراكي، تاريخ النشر: الخميس 04 أبريل 2013م
تم الاطلاع عليها إلكترونياً في: <http://www.alittihad.ae/details.php?id=32949&y=2013>

8 - إيرينا بوكوفا مديرة اليونسكو تستنكر الأضرار التي لحقت بمسجد تمبوكتو في هجوم انتحاري، مركز أنباء الأمم المتحدة في 2013/9/30

تم الاطلاع عليها إلكترونياً في:

<http://www.un.org/arabic/news/story.asp?NewsID=19521#.WFefCtThAsZ>

إلى تدمير طوعي لمواقع تاريخية وثقافية ودينية في مدينة تومبوكتو الأثرية⁹. خصوصا وأن أكثر من 30 في المائة من هذه الوثائق التاريخية، المصنفة تراثا إنسانيا عالميا، تهم مباشرة المغرب، ومن ضمنها عدة مراسلات تهم المغرب، والعلاقات الاقتصادية والثقافية بين المملكة ودول أخرى بإفريقيا الغربية، ووثائق أخرى كتبها علماء وفقهاء مغاربة¹⁰.

وقد فرضت هذه المواقف الدولية تعبئة جماعية لحماية التراث المادي واللامادي لتومبوكتو، وحق السكان المالئين في صيانة ذاكرتهم الثقافية عبر المساهمة في المحافظة على المعالم والمباني والمواقع ذات الأبعاد التاريخية، والإبداعات والمهارات العلمية بهذه المدينة التاريخية.

والمغرب وخاصة المكتبة الوطنية التي اكتسبت خبرة كبيرة في مجال ترميم المخطوطات وحفظ المقتنيات المكتبية التي تتوفر عليها من مخطوطات وخرائط، وصور فوتوغرافية ووثائق، مؤهلة لتسطير برامج عمل مع مكتبات تومبوكتو لدعمها والمساهمة في تأهيل التراث الثقافي لدولة مالي الذي تعرض للتدمير. فضلا عن تدريب الأطر المالية بالمغرب على اعتماد تقنية تخزين المخطوطات في أقراص مدجة ورقمنة مختلف المقتنيات من خرائط وصور فوتوغرافية قصد تسهيل الاستفادة منها من طرف الباحثين.

من جهة أخرى تتوفر المغرب على تجربة رائدة في مجال ترميم المباني والأضرحة. فمجموعة من القطاعات الحكومية والمنظمات الدولية ساهمت بشكل كبير في دعم وتمويل مجموعة من مشاريع إنقاذ وإعادة تهيئة المباني الآيلة للسقوط والمآثر التاريخية المعمارية التي تزخر بها بالخصوص مدينة فاس المصنفة منذ سنة 1981 من قبل منظمة اليونسكو تراثا إنسانيا عالميا. كما أن بالمغرب حرفيون مهرة ساهموا في نقل مجموعة من المعارف والإبداعات الحرفية التقليدية من جيل إلى جيل في إطار الحفاظ على الهوية المغربية وأصالة وجمال الفن المعماري المغربي. وأصبحت للحرفي المغربي شهرة عالمية في ترميم المآثر التاريخية ومواكبة التطورات الحديثة في مجال الصيانة دون المساس بالقيمة التاريخية والفنية للمباني العريقة. لذا فنقل هذه التجارب المغربية الرائدة ممكنة للحرفيين في مالي اليوم أكثر من أي وقت مضى لرد الاعتبار للعديد من المواقع التاريخية التومبوكتية بالخصوص.

9 - بيان وزارة الخارجية والتعاون المغربية في 30 يونيو 2012م.

10 - تصريح عبد القادر حيدرة، رئيس جمعية لحفظ التراث شمال مالي لوكالة المغرب العربي للأنباء المغربية في 6 ماي 2012م.

من جهة أخرى يساهم المغرب في تجربة فريدة في العالم الإسلامي وهو تكوين الأئمة المالئين في معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات. ووقعت مالي والمغرب لهذا الغرض في شتنبر من عام 2013، اتفاقا لجلب 500 إمام مالي إلى المغرب للتدريب الديني على مدى خمس سنوات، ليكونوا درعا حصينا لمالي ضد الدعاة المتشددين، وعاملا على نشر إسلام متشبع بقيم الوسطية والاعتدال والانفتاح، لمكافحة الإيديولوجيات المتطرفة وتعزيز التسامح مع غير المسلمين.

وبجانب الأدوار المنتظرة من السلطات العمومية المغربية لصالح دولة مالي ومدينة تومبوكتو، فإن مؤسسات المجتمع المدني ومنظماته الثقافية وجهود الباحثين يجب أن تسير بدورها في اتجاه إحداث تضامن آخر مع ساكنة مالي والدفاع عن حقوقها الثقافية، خاصة وأن مدينة تومبوكتو تحتفظ لدى كل المغاربة بحضور ثقافي متجذر.

وقد شكل تنظيم الدورة الرابعة لمهرجان «تراكالت: صحراء وثقافة» المغربي بمحاميد الغزلان المغربية، في نونبر 2012 مناسبة من طرف منظميه للاحتفاء بفناني تومبوكتو الذين حلوا بالجنوب الشرقي للمغرب بهدف التغمي بالمحبة والسلام، والتعريف بمظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية لمنطقة تومبوكتو التاريخية، قادمين من دول بعيدة اختاروها وطنا بديلا في انتظار استقرار الأوضاع في بلادهم. ومن بين هؤلاء الفنانين الفنانة فتيما تا ومجموعة «تارتيت» يتقدمهم مدير مهرجان تومبوكتو ماني أنصار. لقد كان مهرجان تراكالت يحمل طموحا مشروعا في إحياء الصلة التي كانت تربط الجنوب الشرقي المغربي مع عمقه الإفريقي خاصة مع مدينة تومبوكتو في مالي. وقد لخص حليم السباعي مدير مهرجان «تراكالت: صحراء وثقافة» أن هذا الملتقى الثقافي والفني السنوي «دعوة للوحدة في زمن الانشقاق، ومساحة للإخاء في زمن التوترات وفسحة للفرح في زمن الأزمات»¹¹.

11 - سكيبة اصنيب، انتصار مخطوطات تمبوكتو، جريدة الاتحاد الاشتراكي، تاريخ النشر: الخميس 04 أبريل 2013م، مرجع سابق.

خلاصة

لقد تضمنت وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الثقافية الصادرة من طرف المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) سنة 1998م مجموعة من الحقوق من قبيل الحق في اختيار هويته الثقافية، ومعرفة ثقافته وتراثه وثقافات الآخرين وفنونهم، والحق في الحماية المعنوية والمادية ذات الصلة بنشاطه الثقافي. فضلا عن مسؤولية الدول إزاء الحقوق الثقافية وحمايتها بمختلف الأشكال. والحالة المالية اليوم مازالت تستوجب تضافر مجهودات المجتمع الدولي والمجتمع المغربي، مؤسسات عمومية ومجتمع مدني، من أجل حماية التراث المادي وغير المادي لهذا البلد العريق، وخاصة تومبوكتو التي تعرضت آثارها وتراثها الحضاري لتعديات المتشددین سنتي 2012-2013م. والمغرب مدعو للاستمرار في دعم دولة مالي في جميع الميادين وخاصة في مجال حماية تراثها التاريخي والحضاري.

المغرب يعيد اكتشاف إفريقيا قراءة في دراسة الخبير الأمريكي حاييم مالكا

د. حسن مومني ود. أحمد إشرخان
باحثان في التاريخ والترجمة والدراسات
الاستراتيجية - الرباط

أولت الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الوطنية والدولية أهمية كبرى للزيارات الملكية إلى دول إفريقيا، وتعددت وجهات نظرهم في هذه الزيارات التي تعتبر فريدة في بابها، نموذجية في مغزاها وأهدافها البعيدة والمتوسطة المدى، وبالقدر الذي كانت فيه كتابات فرنسية وإسبانية حول هذا الموضوع معروفة ومتداولة لدى الباحثين بحكم اللغة وبحكم الاعتياد التاريخي والقرب الجغرافي، ظلت الكتابات الصادرة باللغة الإنجليزية، وبالأساس في الولايات المتحدة الأمريكية، قليلة التداول، إن لم تكن بعيدة عن الاهتمام بفعل عائق اللغة وبالمعرفة اللغوية الدقيقة للمصطلحات المستعملة في مثل هذه الدراسات العميقة من حيث التصورات الاستراتيجية المبنية على مرجعية تاريخية وعلى وقائع آنية وآفاق مستقبلية.

ولعله من باب التذكير فقط الإشارة إلى أهمية وغزارة ما يصدر من دراسات في مختلف المجالات العلمية عن مجموعة من مراكز الدراسات والأبحاث الدولية والإستراتيجية من أبحاث رصينة ومركزة حول المغرب وعلاقاته الدولية على وجه العموم، وحول التحركات الدبلوماسية التي يقودها باقتدار كبير الملك محمد السادس في القارة الإفريقية.

ويسعدنا أن نقدم للقارئ الكريم قراءة في هذه الدراسة التحليلية التي قام بها أحد الخبراء في الولايات المتحدة الأمريكية وهو الباحث والكاتب الشهير حاييم مالكا Haim Malka نائب مدير برنامج الشرق الأوسط في مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن (CSIS) Center for Strategic and International Studies، حيث يشرف على برنامج عمل حول المغرب العربي، وقد صدرت له عدة دراسات متعلقة بالمغرب وإفريقيا وبقضايا الشرق الأوسط،

ومن أهمها المؤلف المشترك تحت عنوان: «الإصلاحات العربية والمساعدات الخارجية: دروس من المغرب» الصادر عن مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، سنة 2006م. وله مقالات جد هامة في مواضيع مختلفة تهم الشراكة الإستراتيجية وضمنها مقال مستقبل المغرب في إفريقيا "Morocco's African Future"، (أكتوبر 2013) ثم هذه الدراسة التحليلية المفصلة التي صدرت تحت عنوان: المغرب يعيد اكتشاف إفريقيا "Morocco's Rediscovery of Africa".¹

وقد تم نشر هذه الدراسة القيمة والمفيدة من قبل «مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن» في إطار برنامج الشرق الأوسط، الذي يهتم بدراسة الاتجاهات الأمنية والاقتصادية والسياسية المتغيرة في المغرب العربي، من خلال البحث والتحليل العلميين، وبواسطة عقد لقاءات أكاديمية لتسليط الضوء على قضايا ذات أهمية في المغرب الكبير لفائدة رجال الأعمال وصانعي القرار السياسي، والمركز مؤسسة خصوصية، مستقلة وغير متحيزة سياسيا، ويصنف في المرتبة الأولى من بين مراكز الأبحاث الدولية في العالم من ناحية اهتمامه بالمسائل الأمنية والدولية.²

صدرت دراسة المغرب يعيد اكتشاف إفريقيا في يوليوز 2013، وهي تتضمن لمحة عن تزايد اهتمام المغرب بدول إفريقيا جنوب الصحراء، وذلك من خلال مضاعفة استثماره الأجنبي المباشر الموجه إليها ما بين 2008م و2010م، والرفع من صادراته إليها بأكثر من ثلاثة أضعاف في الفترة الممتدة ما بين 2000م و2010م، وإلى جانب الاستثمار هناك ثلاثة بنوك مغربية بأصول تبلغ أكثر من 90 مليار دولار، بالإضافة إلى الشركات المغربية في قطاعات واعدة كالزراعة والأودية في إفريقيا. وفي المجال الأمني، فقد دعا المغرب إلى مزيد من التعاون بشكل ثنائي أو بشكل متعدد الأطراف بين الدول المجاورة لمعالجة خطر العنف المتطرف.

أما أهم محاور الدراسة فقد تناولت العديد من القضايا منها: أهمية المغرب العربي في السياسة الأمريكية في ظل التطورات الجديدة المؤثرة في كل من الشرق الأوسط على مصالح الولايات المتحدة، والأسباب الإستراتيجية في أهمية إفريقيا للمغرب، والروابط التاريخية والثقافية والدينية والاقتصادية التي جمعت بلدان شمال إفريقيا مع دول إفريقيا جنوب الصحراء لعدة قرون، والضروريات الاقتصادية التي دفعت المغرب إلى البحث عن فرص جديدة في إفريقيا، والدور الإستراتيجي الناجح للبنوك المغربية في توسيع حضور المغرب الاقتصادي في إفريقيا جنوب

1 - لمعرفة المزيد حول حاييم مالكا، يمكن زيارة الرابط التالي : <https://www.csis.org/people/haim-malka>

2 - لمعرفة المزيد حول المركز وبرنامج، يمكن زيارة موقعه على الانترنت وهو التالي: www.csis.org/mideast

الصحراء، ودور القطاعات الحيوية الأخرى في تعزيز مكانة المغرب في إفريقيا، ودور المغرب الفعال في التعاون الثنائي والمتعدد الأطراف بين الدول الإفريقية على المستوى الأمني، وختم مقاله بالحديث عن الآفاق المستقبلية للشراكة المغربية مع دول إفريقيا.

وعلاوة على ذلك فإن الدراسة تزخر بجملة من المعطيات التاريخية والإحصائية الموثقة، التي تؤرخ للزيارات الملكية، وبالتوقعات والآفاق المنتظرة المبنية على معطيات علمية دقيقة، تظهر قوة المغرب وروابطه التاريخية وضرورة عودته إلى إفريقيا حسب حاييم مالك ليصبح شريكا مهما للدول الإفريقية.

وبالفعل نلاحظ أن المغرب بفضل السياسة القوية والواضحة التي نهجها الملك محمد السادس، نجح في تحقيق العودة إلى الاتحاد الإفريقي في القمة المنعقدة بأديس أبابا، والتي تميزت بخطاب تاريخي مؤثر لجلالة الملك يوم الثلاثاء 31 يناير 2017، أمام المشاركين في أشغال القمة الثامنة والعشرين لقادة دول ورؤساء حكومات بلدان الاتحاد الإفريقي التي احتضنتها العاصمة الإثيوبية أديس أبابا.

- تشكل إفريقيا أهمية استراتيجية للمغرب لعدة أسباب :

حدد مالكا في هذا المحور ثلاث أسباب التي تجعل من إفريقيا ذات بعد استراتيجي بالنسبة للمغرب : أولا، توفر إفريقيا أسواقا مجاورة للمغرب. ثانيا، التطورات على المستوى الأمني التي دفعت بالمغرب إلى تعزيز تعاونه مع دول إفريقيا وتقوية شبكة حلفائه الإقليميين في غربها. ثالثا، تطلع المغرب للقيام بدور قيادي في القارة الإفريقية، خصوصا وأنه قد قام بدور دبلوماسي في العديد من العمليات الدبلوماسية لتسوية النزاعات في جميع أنحاء إفريقيا، وبفضل شعوره القوي بالفخر الوطني.

ويرى مالكا أنه على الرغم من كون المغرب قد حقق مكاسب على الصعيد الاقتصادي، واكتسب السمعة الحسنة لدى بعض الدوائر، فما زال عليه العمل على متابعة انخراط دبلوماسي أوسع، من خلال تركيز اهتمامه على غرب إفريقيا حيث يتقاسم اللغة والدين مع العديد من الدول وحيث يتمتع باقتصاد ودبلوماسية قويتين، وإن تحديد السياسات الصحيحة وتعزيز أصوله في كل ذلك يمكن أن تعطي للمغرب الدور الإقليمي الذي يطمح إليه.

– الروابط التاريخية

في هذا المحور تحدث مالكا عن الروابط التاريخية والثقافية والدينية والاقتصادية التي كانت تربط بين بلدان شمال إفريقيا ودول جنوب الصحراء لعدة قرون، من خلال التبادل التجاري وهجرة قبائل الشبه رحل، ودور التجار الشمال إفريقيون في نشر الإسلام في جميع أنحاء غرب إفريقيا، وما ترتب عنه من نشر المذهب المالكي والطريقة الصوفية التيجانية التي وطدت علاقة المغرب بغرب إفريقيا³.

ثم تحدث حاييم مالكا عن دور المغرب بعد الاستقلال، في تأييد الوحدة الإفريقية⁴، والمساهمة في فكرة إنشاء منظمة الوحدة العربية، حيث عقدت الاجتماعات الأولى لمناقشة هذه الفكرة في الدار البيضاء في عام 1961م. وفي سياق تاريخي تعرض مالكا إلى عوامل انسحاب المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية، وعلى الرغم من ذلك فقد واصل المغرب انخراطه ودعمه لدول إفريقيا سواء على المستوى الثنائي أو من خلال الأمم المتحدة وذلك بتبنيه لبرامج المساعدات التنموية، والاتفاقات التجارية الثنائية، والتعاون الدبلوماسي الأوسع⁵.

وضمن دور جلالة الملك في العلاقات المغربية الإفريقية يقول مالكا: «شجع الملك محمد السادس، على امتداد العقد الماضي، الشركات والوكالات الحكومية المغربية على توسيع أنشطتها مع إفريقيا جنوب الصحراء. وكجزء من الجهود المبذولة لتعزيز علاقات المغرب الإستراتيجية زار الملك أكثر من عشرة دول إفريقية منذ عام 2005⁶، وقد ساهم في تطوير هذه الروابط العلاقات الشخصية بين النخب المغربية والإفريقية، والربط الجوي الوطني من خلال شركة الطيران الوطنية المغربية⁷،

3 - تأسست الطريقة التيجانية في عام 1784. وانتشرت في جميع أنحاء شمال وغرب إفريقيا في القرن التاسع عشر.

4 - في عام 1961 استضاف المغرب رؤساء الدول الإفريقية في إحدى أولى المحاولات لتعزيز الوحدة الإفريقية.

5 - يتابع حوالي 6500 طالب إفريقي من 42 دولة دراستهم سنويا في المغرب. انظر تصريح سعد الدين العثماني، وزير الشؤون الخارجية والتعاون في المملكة المغربية، في الاجتماع الوزاري الرابع لمتابعة مؤتمر طوكيو الدولي للتنمية الإفريقية الرابع، مراكش، المغرب، مايو 2012،

<http://www.diplomatie.ma/Portals/0/Texte%20int%C3%A9gral%20de%20l'intervention%20de%20M.%20le%20Ministre%20en%20Ang.pdf>.

6 - وقد واصل جلالة الملك محمد السادس بعد هذا التاريخ زياراته لدول إفريقيا، فخلال سنة 2015 قام جلالتة بزيارة أربع دول هي السنغال، غينيا بيساو، الكوت ديفوار، الغابون، ودامت زهاء أسبوعين ما بين شهري ماي ويونيو 2015. كما قام جلالتة بزيارة دول شرق إفريقيا تشمل كلا من رواندا وتنزانيا وإثيوبيا ومدغشقر ونيجيريا خلال سنة 2016.

7 - بحلول الثمانينات، أنشأت شركة الطيران الوطنية، الخطوط الملكية المغربية، شبكة مواصلات تربط بين الدار البيضاء والعديد من العواصم الإفريقية. واليوم يخدم الناقل الوطني المغربي حوالي عشرين من العواصم الإفريقية، وله شراكات مع شركات الطيران المحلية الإفريقية.

والحضور البنكي القوي، وسياسات تبسيط الإجراءات للحصول على التأشيرات، والعديد من اتفاقيات خفض التعريفات والحوافز الجمركية».

وضمن المسار التاريخي للعلاقات مع دول إفريقيا يشير مالكا إلى عدم التوازن الذي كان يطبع علاقات المغرب مع دول غرب إفريقيا ودول شرقها، ثم يقارن بين السياسات الإستراتيجية الإفريقية التي نهجتها مصر وليبيا في النصف الأخير من القرن الماضي، وقد شبه مالكا إستراتيجية المغرب بتلك التي سلكتها مصر تحت حكم عبد الناصر: «ولكن ما يميز إستراتيجية المغرب هو أن الدافع وراءها ليست الإيديولوجية أو القيادة من قبل شخصية واحدة، بل القطاع الخاص والشركات شبه الحكومية التي عززت الروابط التاريخية والشخصية».

- الضروريات الاقتصادية

فصل الباحث حاييم مالكا في موارد الاقتصاد المغربي من خلال اعتماده على صادراته إلى أسواق أوروبا وعلى جلب السياح منها حيث يجري ما يقرب من 60% من مبادلاته التجارية، أضف إلى ذلك موارد عماله بالخارج، ونظرا للأزمة التي خلقت المنافسة بأسواق أوروبا اضطرت الشركات المغربية إلى البحث عن أسواق في إفريقيا جنوب الصحراء. بالإضافة إلى عوامل أخرى مرتبطة بعدم تحقيق توقعات اتفاقيات التجارة الحرة مع الولايات المتحدة وبطء التعاون الاقتصادي المغربي والمنافسة العالمية. وبناء على ذلك فإن الإمكانيات التي توفرها إفريقيا جنوب الصحراء تؤهلها لتصبح سوقا مهمة بالنسبة للمغرب. خصوصا وأنها ستشهد نموا اقتصاديا كبيرا في المستقبل.

فإذا كان التعدين والصناعات القائمة على الموارد الطبيعية يستقطب اهتماما كبيرا، فإن الطلب يتزايد على الموارد الاستهلاكية، يقول مالكا: «وتشمل مجالات النمو الواعدة ما يلي: القطاع الزراعي، والبنية التحتية، والبنكية، والخدمات، والسلع الاستهلاكية، ولقد تضاعف، تقريبا، الاستثمار الأجنبي المباشر للمغرب الموجه إلى إفريقيا جنوب الصحراء بين عامي 2008 و2010، بحيث انتقل من 248 مليون دولار إلى 495 مليون دولار. وهذا يمثل فقط جزءا من مجموع تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر في إفريقيا جنوب الصحراء، والتي وصلت 36.9 مليار دولار في 2011⁸، وهي تمثل ما يقرب من 89% من مجموع تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر المغربي⁹.

8 - Tosin Sulaiman, "Foreign Direct Investment into Africa to Double by 2014: UN," Reuters, July 6, 2012, <http://www.reuters.com/article/2012/07/06/ozatp-africa-investment-idAFJOE86501J20120706>.

9 - Attijariwafa Bank, "Insights on the New Moroccan Strategy for Sub-Saharan Africa," Presentation, June 2012.

لقد اتسع نطاق الصادرات المغربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء بشكل كبير، رغم أنها تشكل أقل من 5% من إجمالي صادرات المغرب. فقد ارتفعت صادراته إلى إفريقيا جنوب الصحراء بين عامي 2000 و2010 بأكثر من ثلاثة أضعاف، من 248 مليون دولار إلى 849 مليون دولار، بينما ارتفعت وارداته منها من 248 مليون دولار إلى 531 مليون دولار¹⁰. لكن الصادرات إلى إفريقيا تتوزع بشكل غير متساو في جميع أنحاء القارة، بحيث نجد 28% من صادرات المغرب تذهب إلى وسط إفريقيا وأقل من 3% إلى دول بإفريقيا الجنوبية، بينما نجد أكثر من 60% تذهب إلى غرب إفريقيا¹¹، حيث يتمتع المصدرون المغاربة بتنافسية أكبر من الأوروبيين، وذلك لأنهم أقل ترددا في تجنب المخاطر من جهة، عكس الشركات الأوروبية التي يمكن أن تثنيها الأجواء السياسية والأمنية المحلية، ومن جهة أخرى لأن تكاليف اليد العاملة المغربية وهياكل التكلفة هي أقل من نظيرتها في أوروبا. ونظرا لحجم الصادرات إلى هذه المنطقة، فإن المغرب يسعى إلى خفض التعريفات والرسوم الجمركية، وإلى نيل مكانة الدول الأكثر تفضيلا داخل الاتحاد الاقتصادي والنقدي لغرب إفريقيا.

- البنوك في المقدمة

ومن المجالات التي اهتم بها الباحث مالكا هو مجال البنوك المغربية التي اتسمت بوضع إستراتيجية هامة جدا، والتي مكنت من توسيع دائرة الحضور المغربي في إفريقيا جنوب الصحراء، وربط ذلك بمجموعة من الإصلاحات البنكية في التسعينات من القرن الماضي، بالإضافة إلى قانون البنوك المعدل عام 2004 الذي أضفى على الصناعة البنكية المغربية صفة الاحترافية والشفافية، مما مكن ثلاثة بنوك مغربية من أن تصنف ضمن أكبر عشرة بنوك في إفريقيا. وقد وضع مالكا بأن الخدمات البنكية ستبقى هائلة للنمو الإفريقي على اعتبار أن أربعة من كل خمسة أفارقة لا يملكون حسابات بنكية، كما توقع تضاعف الأصول البنكية بثلاث مرات قبل 2020م.

كما بين مالكا الدور المهم الذي يلعبه القطاع البنكي المغربي في تمهيد الطريق للصناعات المغربية الأخرى المتوقع أن تعرف نموا في إفريقيا على مدى العقد المقبل، ومن بينها قطاعات الزراعة والأدوية والاتصالات والصناعات التحويلية.

10 - وصلت صادرات المغرب و وارداته من إفريقيا جنوب الصحراء 2.1 مليار درهم مغربي في عام 2000 وارتفعت إلى 7.2 مليار و4.5 مليار درهم مغربي، على التوالي، بحلول عام 2010.

- "Morocco's Trade Performance on the sub-Saharan African Market," April 2012, Kingdom of Morocco Ministry of Economy and Finance, http://www.finances.gov.ma/portal/page?_pageid=93,17858036&_dad=portal&_schema=PORTAL&id=85&lang=En.

11 - المرجع نفسه.

- خارج عن الخدمات

وبالإضافة إلى الخدمات وضع مالكا أهمية القطاعات الأخرى بحيث ركز على قطاعي المنتجات الزراعية وصناعة الأدوية. فيمكن للمغرب توسيع تعاونه الزراعي مع دول إفريقيا خصوصا وأن القارة تحتوي على 40% من الأراضي الصالحة للزراعة عالميا، والتي لا يستغل منها إلا 10% ومن جهة أخرى فالمغرب هو رائد عالمي في إنتاج الفوسفات.

وفيما يتعلق بقطاع صناعة الأدوية بين مالكا أن المغرب يمتلك ثاني أكبر قطاع لصناعة الأدوية في إفريقيا، ولفت الانتباه إلى ضرورة توسيع مجال التسويق الذي ركز على شمال وغرب إفريقيا، خصوصا وأنه من المتوقع أن يقفز سوق الأدوية بالقارة الإفريقية إلى 45 مليار دولار بحلول عام 2020م.

وأشار مالكا إلى المنافسة الاقتصادية الشديدة التي تعرفها القارة الإفريقية من قبل العديد من الدول التي لها مصالح استراتيجية بها، ومنها الصين والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا والبرازيل والهند وروسيا ودول مجلس التعاون الخليجي، مما يحتم على المغرب مواصلة تعزيز شراكاته القائمة والبحث عن الأسواق المتخصصة في إفريقيا.

- الأمن

في المجال الأمني عرض الباحث مالكا إلى العديد من المخاطر التي تهدد أمن إفريقيا، ومنها تزايد انعدام الأمن في الصحراء والساحل، والهجرة السرية والجماعات المسلحة التي لها صلة بالقاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وقد دعت الحكومة المغربية إلى مزيد من التعاون الثنائي والمتعددة الأطراف بين الدول المجاورة للتصدي لهذا الخطر، وأعطى مالكا أمثلة على جهود المغرب في هذا الصدد بحيث أيد المغرب التدخل العسكري الفرنسي في مالي، وعمل بشكل وثيق مع حكومات موريتانيا ومالي والسنغال وغيرها لمكافحة الإرهاب والحد من انتشار الفكر المتطرف. كما عمل المغرب بشكل وثيق مع حكومة الولايات المتحدة والحكومات الإفريقية الأخرى للتوسط في أزمة غينيا السياسية بعد محاولة انقلاب يناير 2010م، وساعد على تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة والحكومة الموريطانية بعد انقلاب 2008م، كما شاركت القوات المغربية في عملية نزع الألغام بالسنغال، ويتواجد نحو 1500 جندي مغربي في إطار بعثات حفظ السلام للأمم المتحدة في جمهورية الكونغو الديمقراطية وفي كوت ديفوار. وإلى جانب ذلك تجدر الإشارة هنا إلى الدور الذي تضطلع به أكاديمية المغرب العسكرية في تكوين العديد من الضباط العسكريين الأفارقة، معظمهم من دول

غرب إفريقيا، كما يضيف مالكا أن المغرب يتعاون حاليا مع 22 دولة إفريقية على مكافحة المخدرات ونزع السلاح والهجرة والقرصنة وحل النزاعات.

- الآفاق المستقبلية

تعرض الباحث مالكا إلى الآفاق المستقبلية للعلاقات المغربية الإفريقية ومنها :

انخراطه بنشاط أكبر في المنظمات الإقليمية وإمكانية انضمامه، إلى الاتحاد الإفريقي، وهو ما تحقق بالفعل في قمة أديس أبابا، على أن أهم المواقع التي يجب أن يسعى إليها المغرب كما لاحظ مالكا هي تجمع دول الساحل والصحراء حيث يتوفر المغرب على المصالح الحيوية المباشرة، وقد أنشأ هذا التجمع لجنة لبحث التحديات الأمنية المشتركة في القمة المنعقدة بالرباط عام 2012، وتم انتخاب المغرب لرئاسة المجلس التنفيذي للتجمع عام 2013. ويرى مالكا أنه يمكن لقدرات المغرب وتجربته التنموية أن توفر دفعة مهمة للتجمع وتعطيه دورا إفريقيا كبيرا على مستوى تعزيز التعاون الأمني الإقليمي وتبادل المعلومات.

على اعتبار أن إفريقيا تعرف منافسة دولية شرسة لكونها أحد آخر الأسواق الجديدة المتبقية، وباعتبار أن إفريقيا أصبحت ضرورية وذات أهمية استراتيجية لمستقبل المغرب فإن مالكا يقترح على المغرب مواصلة التركيز على بناء وجوده في غرب إفريقيا ووسط إفريقيا الفرنكفونية حيث له علاقات تاريخية وشبكات اقتصادية ومصالح أمنية مشتركة، وفي الوقت نفسه لا يمكن للمغرب أن يصل إلى كل إمكاناته في إفريقيا دون إقامة علاقات ثنائية أفضل مع الدول الإفريقية الرائدة، مثل: نيجيريا وجنوب إفريقيا. وبالفعل فقد لاحظنا ما قام به جلالة الملك بربط علاقات وطيدة مع نيجيريا بفضل سياسته الحكيمة وفي مقدمتها إطلاق مشروع مد أنابيب الغاز.

ويدعو مالكا من خلال هذه الدراسة التحليلية القيمة الولايات المتحدة الأمريكية إلى تشجيع وتسهيل جهود المغرب من خلال دعم دوره القيادي في تجمع دول الساحل والصحراء، كما يدعو الولايات المتحدة لتخصيص جزء من دعمها للمغرب لتعزيز قدرته في مجال الدعم التنموي والتدريب في إفريقيا جنوب الصحراء، خصوصا وأن الجامعات المغربية تستقبل حاليا الآلاف من الطلبة الأفارقة. ونبه مالكا إلى أن التدريب المهني في المغرب يمكن أن يكون مؤسستيا واستراتيجيا أكثر.

وتطرق مالكا إلى أهمية تقاسم الخبرة المغربية في مجال التنمية مع الدول الإفريقية وضرب مثلا بمجال الكهرباء حيث قام المغرب بإطلاق برنامج كهربية الريف بالسنغال، وقد عمل من خلال

برامج مغربية بتعاون مع الأمم المتحدة والوكالة اليابانية للتعاون الدولي بتقديم دعم ثلاثي لدول إفريقيا جنوب الصحراء. وتشمل هذه البرامج في غرب إفريقيا مجال الرعاية الصحية والصرف الصحي والبنية التحتية للمياه، ومصايد الأسماك.

وفي الأخير نبه مالكا إلى أنه ينبغي على المغرب استخدام قدراته التقنية لتوسيع برامج تداريبه الحالية لصالح الجيوش الإفريقية وقوات الأمن بالتنسيق مع الولايات المتحدة. ويرى أن دول شمال إفريقيا لديها القدرة على لعب دور أكبر في تقديم المساعدة لمواجهة التحديات الأمنية في منطقة الساحل وغرب إفريقيا، ويوجد المغرب في وضع جيد للقيام بهذا الدور، وهو حريص على القيام به. خصوصا وأن المغرب انتهج الاستراتيجية الأكثر شمولا في إفريقيا جنوب الصحراء لأن حجم التحديات الإقليمية المتطورة توفر فرصة جديدة لمزيد من التعاون المغاربي.

ديوان العدد

مناسبة عودة المغرب للاتحاد الإفريقي

عاد "للبيت" عزيزا غاليا

الشاعر: محمد البلغمي

ألف بشرى .. لأُمير المؤمنين *
 كيف لا .. والحق قد عاد لنا *
 ووجدنا نفسنا بعد الجفنا *
 إنه جهد مليك .. ما ونى *
 همه إرجاع حق للحمى *
 إن "إفريقيا" بها إخواننا *
 ما نسينا أبدا .. رغم النوى *
 ألف شكر لمليك مؤمن *
 كم له من جولة في أرضها *
 ينشر الإنماء في أقطارها *
 ذكر الشعب بأيام الألى *
 هم ملوك جعلوا آمالهم *
 كان حلما .. طالما راودنا *
 وإذا نحن "بإفريقيا" نرى *
 ونرى السادس يخطو واثقا *
 راقهم منه بيان رائع *
 شرح الأمر بفكر نير *
 هكذا من بعد جهد مرهق *

ولشعب بذرى المجد قمين! *
 بعد صبر وكفاح .. من سنين *
 "لاتحاد إفريقي" عائدين! *
 لحظة عن جمع شمل الأقربين *
 وانتزاع النصر .. رغم الحاقدين! *
 ولها كنا دواما متممين *
 أنها الأم لكل القاطنين! *
 بكتاب الله دوما يستعين *
 واعتناء بشؤون المسلمين *
 ويزيل الخلف بالرأي الرصين! *
 عرشهم كان سروج السابحين *
 خدمة الشعب، ودحر المعتدين! *
 ومنى عشنا بها مستبشرين *
 عودنا للصف حقا وبقين *
 بين هذا الجمع مرفوع الجبين *
 في خطاب هز كل الحاضرين! *
 وبرأي مفحم للمخطئين *
 أدرك النصر .. بعزم المؤمنين *

عاد "البيت" الذي أسسه *
 وابتنى أركانهه والــــــده *
 غير أن البعض حادوا.. فغدوا *
 زرعوا فيه كيانا زائفــــا *
 أي عيش وبقاء بينــــه *
 طغمة من كل جنس جمعت *
 أوهموهم بوعود كلهمــــا *
 حصص الحق وربي.. وانجلى *
 عاد للبيت عزيزا غالــــيا *
 أكبر الإخوة فيه ملكــــا *
 وإماما سائرا في شعبــــه *
 فإليك اليوم نهدي شكرنــــا *
 ولتسر بالشعب نحو المبتغى *
 ولتدم للشعب ذخرا، والحمى *
 وإلهى لك يرعى حــــسنا *
 ولنا يبقيك ربي عاهــــلا *

جده الخامس .. رمز المصلحين!
 حسن الذكر.. وفخر العاهليــــن
 لدعاة الشر فيه.. تابعيــــن
 ماله روح .. ولا نطق ييــــن!
 وهو أمسى ملجأ للغادريــــن؟
 وخليط من شباب ضائعــــين
 كسراب في خيال الواهميــــن
 لذوي الحكمة زيف المفتريــــن!
 وعلى الأعداء عدنا ظافريــــن
 ينتمى أصلا لخير المرسلــــين
 بهدى السنة والذكر الميــــن!
 كشذى الورد وعطر الياسميــــن
 إننا خلفك نمضي مخلصيــــن!
 وليصن عرشك رب العالمــــين
 وليا للعهد، والصنو الأميــــن
 تسعد الأمة في دنيا وديــــن!

فهرس العدد:

- 7 افتتاحية
- 9 نص الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه جلالة الملك محمد السادس نصره الله بأديس أبابا.....

مقالات العدد

- عودة المغرب إلى الاتحاد الإفريقي : خطوة لتنفيذ استراتيجية تعاون جنوب - جنوب
- 21 ذ. عبد الفتاح الفاتحي
- المغرب وإفريقيا... نحو آفاق جديدة لعلاقة متجددة
- 31 ذ. عبد الله بوصوف
- ملامح من مسار العلاقات المغربية الإفريقية عبر التاريخ
- 41 ذ. نور الدين بلحداد
- ملف الصحراء المغربية في ردهات الاتحاد الإفريقي بين تركة إخفاقات تدبير النزاع ورهانات التحدي المغربي
- 49 ذة ماجدة كريمي
- ملامح من العلاقات التجارية والاقتصادية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء
- 61 ذ. منير روكي
- الصحراء قناة لتبادل الأفكار والقيم الروحية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث وبداية المعاصر
- 73 ذ. الحسين عماري

جوانب من إسهام الفقهاء المغاربة في انتشار تعاليم المذهب المالكي بالصحراء المغربية
والسودان الغربي

87 ذ. أحمد الأزمي

بيعة أهالي تنبكت لمولاي الحسن الأول من خلال وثيقتين رسميتين: محاولة دراسة وتحليل

109 ذة. زوليخة بنرمضان

مدينة تومبوكتو والحقوق الثقافية: السكان المليون والحق في صيانة ذاكرتهم الثقافية

127 ذ. محمد أمطاط

المغرب يعيد اكتشاف إفريقيا قراءة في دراسة الخبير الأمريكي حاييم مالكا

135 ذ. حسن مومني ود. أحمد إيشرخان

ديوان العدد:

قصيدة: عاد للبيت عزيزا غاليا

147 الشاعر محمد البلغمي

شروط النشر بالمجلة

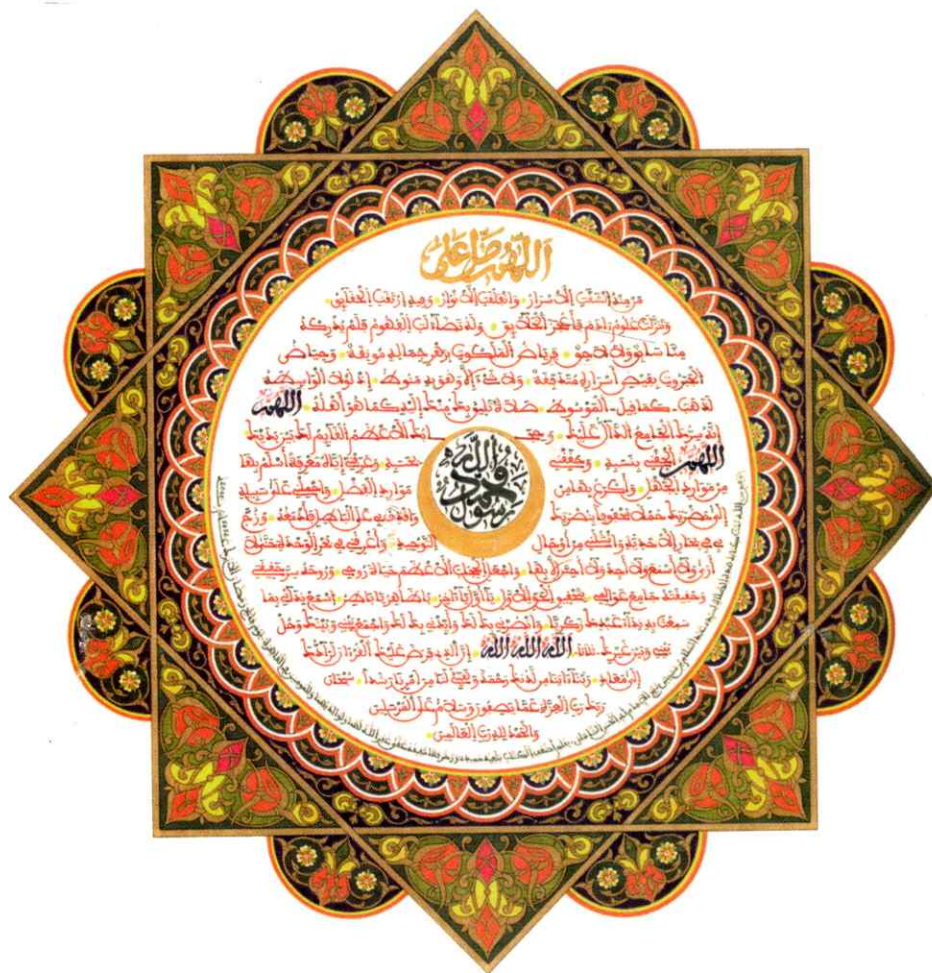
- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
 - أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
 - ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
 - في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
 - في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
 - تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
 - ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
 - البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com
 - ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
 - الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
 - ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاوَر الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاوَر الآتية:

1. عيد العرش المجيد
2. ثورة الملك والشعب
3. أبعاد الحضور الإفريقي في الأدب المغربي
4. المولد النبوي الشريف بالمغرب وإفريقيا جنوب الصحراء





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعمر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية